تاريخ ما بين السطور

حكاية القصر المسحور

رمضان مصطفى سليمان

الغرفة التي همست للطغاة

حكاية القصر المسحور فوق الجبل الأقرع

ما رأيك يا صديقتي في زيارة لقصر يتقاطر عليه السائحون ، ويدفعون لمجرد الطواف به في جولة سريعة أكثر مما يدفعون لزيارة اللوفر أو المتحف المصري .

سألتني صديقتي، وقد انعقد بين حاجبيها خطٌّ رفيع من الريبة، بينما كانت عيناها تلمعان بذلك البريق الذي لا يشرق إلا في عيون عشاق الأسرار :

ما وراء هذا الإغراء يا ترى؟ ولماذا تصرّ على أن أرافقك إلى ذلك المكان ؟

ابتسمت ، وأنا أعرف أن السؤال لم يكن سوى باب صغير فتحته رغبتها العميقة في المجهول.

قلت :

لأنك مولعة بالأسرار، ولأن ذلك القصر يسكن خيال كل من أُصيب بداء الفضول الجميل. هناك، بين الحجارة العتيقة، تختلط الحقيقة بالأسطورة، ويصبح من الصعب أن يعرف المرء أين ينتهي التاريخ وأين يبدأ الوهم. ثم إنك مغرمة بقصص السحرة والساحرات، وذلك القصر يكاد يكون معبداً لكل الحكايات التي ولدت في ظلال الغابات الأوروبية.

مالت نحوي قليلاً بدلال و قالت :

قصر ؟ أي قصر هذا ؟

تنهدت وكأنني أستحضر صورة بعيدة من أعماق الزمن.

إنه قصر يعود إلى القرن الثاني عشر الميلادي. لم يبق منه اليوم سوى أطلال متداعية، لكنها أطلال تأبى الموت. تقف فوق جبل أقرع كشيخٍ عجوزٍ يتحدّى القرون. تحيط به الغابات من كل جانب، غابات كثيفة حتى ليخيل للناظر أنها بحر أخضر تجمدت أمواجه منذ ألف عام.

و سكتُّ لحظة، ثم أضفت :

يقع في واحدة من أجمل بقاع ألمانيا وأكثرها غموضاً. الحكومة الألمانية تبذل جهوداً كبيرة للحفاظ عليه، كأنها تحرس صفحة نادرة من كتاب التاريخ. أما أهل المنطقة، فعلاقتهم به غريبة ؛ فهم يحبونه ويفخرون به، لكنه في الوقت نفسه يثير في نفوسهم خوفاً قديماً لا يزول.

و لماذا ؟

بسبب غرفة واحدة.

رفعت حاجبيها دهشة.

غرفة واحدة فقط ؟

نعم. غرفة وحيدة وسط الخراب كله. غرفة يعتقد الناس أن لعنة قديمة ما تزال تسكنها.

ساد الصمت بيننا للحظات.

>

كان المقهى هادئاً، والناس من حولنا غارقون في أحاديثهم العادية، لكنني شعرت أننا انتقلنا فجأة إلى عالم آخر، عالم تقف فيه الأساطير على حدود الواقع.

قالت :

و ما قصة تلك الغرفة ؟

قلتُ :

ستعرفين كل شيء إذا قررتِ الذهاب معي.

هزت رأسها معترضة.

لا. ليس قبل أن تزيدني عنها بياناً.

ضحكت.

حسناً. هل تعلمين أن أدولف هتلر نفسه أصدر قراراً بهدم القصر ؟

بدت المفاجأة واضحة على وجهها.

هتلر ؟

نعم. كان يرى أن الأطلال قد تتحول إلى ملجأ للجواسيس والمتسللين. لذلك أمر بإزالتها تماماً. لكن قبل تنفيذ القرار خطر له أن يزور المكان بنفسه.

صمتُّ قليلاً ثم أكملت بصوت منخفض :

دخل القصر. تجول بين أنقاضه. ثم دخل الغرفة المشؤومة.

وماذا حدث؟

لا أحد يعلم على وجه اليقين. لكن الروايات المحلية تقول إنه خرج منها شاحب الوجه، مضطرب النظرات. وما إن التقى وزير دعايته جوزيف جوبلز حتى قال له :

لقد عدلت عن قرار الهدم.

فوجئ جوبلز وسأله عن السبب.

فقال هتلر، بحسب الرواية :

كان قراري مبنياً على اعتبارات عسكرية، لكن شيئاً ما في تلك الغرفة جعلني أغير رأيي. شعرت وكأن صوت امرأة يخرج من الجدران نفسها، من الحجارة، من الهواء. لم يكن صوتاً مسموعاً بالأذن، بل إحساساً يتسلل إلى القلب. كان يقول لي: ابتعد عني... وإلا كان مصيرك كمصير كل من تحداني.

وسكت هتلر لحظة ثم أضاف :

دع الأطلال كما هي يا جوبلز.

حدقت صديقتي في وجهي طويلاً، ثم قالت:

أتعرف ؟ يبدو هذا أقرب إلى قصص أعداء هتلر منه إلى الحقيقة. لقد كان الرجل مولعاً بالأساطير والسحر. ربما أضاف الناس إلى سيرته هذه الحكاية لتأكيد صورتهم عنه.

ثم ابتسمت وأضافت :

ومن يدري ؟ لعل هتلر خشي أن تنافسه شهرة تلك الغرفة في عالم الخرافات !

ضحكتُ.

احتمال وارد. لكن ماذا عن دوايت أيزنهاور ؟

ساد الصمت ثانية.

قالت :

ماذا عنه ؟

بعد الحرب العالمية الثانية ، حين وصلت إليه القصص المتداولة عن القصر، قرر زيارته بنفسه.

ثم ؟

دخل الغرفة.

و خرج ؟

نعم... لكنه خرج مسرعاً.

لماذا ؟

قلت :

بحسب ما يرويه شهود تلك الزيارة، وقف للحظات في منتصف الغرفة، ثم تغير لون وجهه فجأة. أخذ يتلفت حوله كأن شيئاً يراقبه. وبعد دقائق قليلة غادر المكان وهو يقول :

هناك شيء في هذه الغرفة يقبض القلب. شيء يثير في النفس خوفاً لا أعرف مصدره. دعونا نغادر هذه الأطلال الكئيبة.

ثم أضاف :

ولا أدري لماذا ما زالت الحكومة الألمانية تبقي عليها.

أطرقت صديقتي مفكرة.

كانت تحاول أن تبدو عقلانية، لكنني كنت أرى بوضوح أن فضولها بدأ ينتصر على شكوكها.

قالت بعد لحظة :

لا أنكر أن في القصة إثارة. لكن ما الذي يجعل الناس يخافون من غرفة مهجورة منذ قرون ؟

قلت :

لأن البشر لا يخافون الأماكن... بل يخافون ما تعكسه الأماكن من أعماقهم.

تأملتني باستغراب.

فواصلت :

أحياناً لا تكون اللعنة في الجدران، بل في النفس نفسها. يدخل المرء مكاناً قديماً فيجد نفسه وجهاً لوجه أمام مخاوفه التي ظل يهرب منها سنوات طويلة.

ثم أضفت :

ربما كانت تلك الغرفة مرآة أكثر منها غرفة.

هزت رأسها ببطء.

أما أنا فقد سرحت للحظة في صورة القصر.

كنت قد رأيت صوره عشرات المرات.

أبراج محطمة. جدران مكسوة بالطحالب. نوافذ فارغة كعيون ميتة تحدق في الأفق. ووراء كل ذلك تاريخ طويل من الدم والحب والخيانة.

تقول إحدى الأساطير إن سيدة نبيلة عاشت هناك قبل قرون. كانت فائقة الجمال حتى شاع بين الناس أن الجنيات باركن مولدها. لكن جمالها تحول إلى نقمة. تنافس الفرسان عليها. اندلعت الحروب بسببها. ومات رجال كثيرون وهم يحملون اسمها في صدورهم.

وحين قُتل الرجل الذي أحبته، اعتزلت العالم داخل تلك الغرفة. بقيت فيها سنوات طويلة. لا تغادرها. لا تكلم أحداً. حتى وجدها الخدم ذات صباح جثة هامدة قرب النافذة.

ومنذ ذلك اليوم بدأ الناس يتحدثون عن صوت امرأة يبكي ليلاً داخل الغرفة. صوت يأتي مع الريح. ويختفي مع الفجر.

وقديماً قال أحد الحكماء :

إن للأماكن ذاكرة ، وإن الحجارة تحفظ ما تعجز الكتب عن حفظه.

وربما لذلك بقيت الأسطورة حية.

قالت صديقتي :

ـــ وهل تؤمن أنت بكل هذا ؟

ابتسمت.

كان سؤالها أصعب مما يبدو. فأنا، رغم سنوات القراءة والبحث، لم أستطع أن أحسم موقفي تماماً.

قلت:

أؤمن بالتاريخ. أما الأساطير فأؤمن بأنها تكشف شيئاً من حقيقة البشر، حتى عندما لا تكون صحيحة حرفياً.

ماذا تقصد ؟

قلت :

الإنسان لا يبتكر أسطورة من فراغ. وراء كل خرافة خوف حقيقي أو حلم حقيقي أو جرح حقيقي.

ثم سرحت قليلاً في أفكاري. كنت أفكر في نفسي أكثر مما أفكر في القصر.

لماذا كنت متحمساً لهذه الرحلة ؟ هل حقاً أردت رؤية الغرفة ؟ أم كنت أبحث عن شيء آخر ؟

ربما كنت أبحث عن ذلك الشعور النادر الذي نفتقده في عصرنا؛ شعور الوقوف أمام لغز لا تستطيع التكنولوجيا تفسيره ولا تستطيع الكتب إنهاءه.

لقد أصبح كل شيء مكشوفاً. كل شيء قابلاً للقياس والتحليل.

أما الأسرار الحقيقية فقد صارت نادرة.

ولهذا كنت أشعر بانجذاب غامض نحو ذلك المكان.

فالإنسان لا يعيش باليقين وحده.

إنه يحتاج أحياناً إلى نافذة مفتوحة على المجهول.

قالت صديقتي فجأة :

يبدو أنك وقعت تحت سحر الغرفة قبل أن تراها.

ضحكت.

ربما.

وهل تخاف منها ؟

فكرت قليلاً. ثم قلت:

أخاف مما قد أكتشفه عن نفسي هناك.

بدت عليها الحيرة.

فقلت :

أخطر الأماكن ليست تلك التي تسكنها الأشباح، بل تلك التي تجعلنا نواجه أرواحنا.

ساد الصمت مرة أخرى.

وفي الخارج كانت الشمس تميل نحو الغروب. أخذ الضوء البرتقالي ينساب فوق الأرصفة والوجوه. فبدا العالم كله كأنه صفحة قديمة من مخطوطة عتيقة.

قالت أخيراً :

حسناً... لقد بلغت الذروة في إثارة شوقي. أعترف بذلك.

ثم مالت نحوي وهمست :

أريد أن أرى تلك الغرفة بنفسي.

ابتسمت منتصراً.

إذن ستأتين ؟

نعم.

رغم اللعنة ؟

رغم اللعنة.

ضحكتُ.

فقالت وهي تبتسم :

لكن بقي سؤال واحد.

ما هو ؟

أين يقع ذلك القصر ؟

نظرت عبر النافذة إلى الأفق البعيد.

ثم قلت بصوت هادئ يشبه بداية حكاية جديدة :

يقع هناك... حيث تتعانق الغابات مع الضباب، وحيث ما زال الماضي يرفض أن يموت. يقع فوق جبل وحيد يراقب القرون وهي تمر أمامه. أما اسمه الحقيقي، فستعرفينه عندما نقف عند بوابته الحجرية، وحينها فقط ستدركين أن بعض الأسرار لا تُروى بالكلمات... بل تُعاش.

ثم أضفت، وكأنني أحدث نفسي قبل أن أحدثها:

ومن يهوَ صعودَ الجبالِ يعشْ أبدَ الدهرِ بين الحفرِ

أما هي فابتسمت ابتسامة غامضة، وقالت:

إذن لنبدأ الرحلة.

وفي تلك اللحظة شعرت أن القصر البعيد، الراقد بين الغابات منذ ثمانية قرون، قد فتح لنا بابه أخيراً، وأن الغرفة التي أخافت القادة والجنود والعابرين كانت تنتظر زائرين جديدين، يحمل كل منهما سؤاله الخاص، ويبحث في ظلامها عن جواب ربما لا يجده أبداً.

ليلة على الجبل الأقرع

حين تتكلم الحجارة من رماد القرون

في أقصى الجنوب الشرقي من ألمانيا، حيث تتعانق الجبال مع الغابات القديمة، وتقف أشجار الصنوبر كحرّاسٍ صامتين على أبواب الزمن، ينتصب قصر هوهنشتافن فوق هضبة صخرية يلفّها الضباب في الصباح، ويطوّقها السكون في المساء. هناك، حيث تتشابك الأساطير مع الوقائع، ويصبح التاريخ أقلّ يقينًا وأكثر شبهًا بالحلم.

كان أهل المنطقة يطلقون على التل الذي شُيّد عليه القصر اسم **الجبل الأقرع** ؛ إذ كانت قمته الصخرية العارية تبرز وسط بحرٍ من الأشجار الكثيفة كجزيرةٍ وحيدة وسط محيط أخضر.

وتروي السجلات القديمة أن السلطات الشيوعية في ألمانيا الشرقية قررت يومًا هدم القصر، كما هدمت كثيرًا من القلاع والقصور التي رأت فيها بقايا لعصر الإقطاع. لكن القرار توقف فجأة، وتراجع الحاكم عن تنفيذه قبل سنوات قليلة من الوحدة الألمانية.

لا أحد يعرف الحقيقة كاملة.

قال بعضهم إن القصر كان يحمل أسرارًا لا يرغب أحد في كشفها. وقال آخرون إن غرفه الخفية أثارت خوف المسؤولين أنفسهم.

غير أن التفسير الأقرب إلى العقل كان أبسط من كل الأساطير: السياحة.

فالقصر كان يجذب آلاف الزوار سنويًا، وكانت رسوم دخوله تدرّ أموالًا وفيرة على خزائن الدولة. وهكذا انتصرت الماركات حيث فشلت المطارق.

أما « الجبل الأقرع » نفسه، فقد ألهم الموسيقار الروسي الجرماني الأصل **مودست موسورغسكي** ليؤلف رائعته الشهيرة ليلة على الجبل الأقرع .وحين سأله أحد الصحفيين يومًا :

هل فكرت في كتابة مقطوعة عن الغرفة السرية المسحورة داخل القصر ؟

ظل الرجل صامتًا لحظة، ثم شحب وجهه وقال بصوتٍ خافت :

لم أدخلها قط.

و لماذا ؟

تنهد طويلًا، ثم أجاب :

ما إن وقفت أمام بابها حتى شعرت بقشعريرة تسري في عظامي. كان الخوف هناك شيئًا يمكن لمسه باليد. لم أفتح الباب، ولم أحاول ثانية. وفي صباح اليوم التالي غادرت المنطقة كلها.

>

أغلقتُ الدليل السياحي الذي كنت أقرأه، ونظرت إلى صديقتي الجالسة إلى جواري.

كانت تحدّق عبر نافذة القطار نحو الغابات الممتدة، وقد انعكس الضوء الأخضر على عينيها.

قلت مبتسمًا :

والآن، هل استيقظت نزعاتك الفنية بما يكفي لتوافقي على السفر معي في رحلة إعلامية إلى ذلك القصر ؟

لم تتردد لحظة. استدارت نحوي بعينيها اللامعتين و قالت :

أنا جاهزة.

ثم أضافت ضاحكة :

لكن إن ظهرت الأشباح التي يتحدثون عنها فسأتركك تواجهها وحدك.

قلت :

الأشباح لا تخيفني.

قالت :

لأنك لم ترَ واحدًا بعد.

>

لا أدري كيف حدث الأمر. هل كان حلمًا ؟ هل كان سحرًا من سحر ذلك الجبل ؟

أم أن التاريخ نفسه قرر أن يفتح لنا نافذة صغيرة على ماضيه البعيد؟

كل ما أذكره أننا كنا نسير بين أشجار كثيفة، ثم انقشع الضباب فجأة.

وعندما رفعت رأسي رأيت القصر. لكن ليس القصر الذي رأيته في الصور. بل قصرًا حيًا نابضًا بالحياة. قصرًا يتنفس. تتدلى الرايات من أبراجه. وتتلألأ النوافذ بالضوء. وتتعالى الموسيقى من داخله. وتجوب الحدائق عربات فاخرة تجرها الخيول.

أما الرجال فكانوا يرتدون أثواب المخمل والفراء، والسيدات يتهادين في أثواب حريرية ملونة كأزهار الربيع.

توقفت صديقتي فجأة. حدقت حولها في ذهول. ثم التفتت إليّ وهي تكاد تنفجر غضبًا:

ما هذا أيها الزميل المخادع ؟

قلت متعجبًا :

ماذا حدث ؟

قالت وهي تشير إلى القصر :

وعدتني بزيارة أطلال أثرية ! أين الأطلال ؟ !

ثم أضافت :

نحن أمام قصرٍ عامر بالحياة ! خدم، وفرسان، وموسيقى، وولائم! لقد خدعتني !

ضحكت. ثم قلت بهدوء :

لم أخدعك يا صديقتي.

إذن كيف تفسر ما أراه ؟

نظرت حولي بدوري. ثم قلت ببطء :

التفسير الوحيد أننا لم نعد في القرن الحادي والعشرين.

ارتجفت.

ماذا تقصد ؟

أظن أننا في عام 1431 للميلاد.

ساد الصمت. حتى الريح بدت وكأنها توقفت عن الحركة.

همست :

هذا مستحيل...

قلت :

أعلم.

ثم أضفت :

لكنه يحدث الآن.

وقبل أن تتمكن من الرد، لمحنا رجلًا وقورًا يتقدم نحونا عبر الحديقة.

كان طويل القامة. عريض الكتفين. تنسدل على صدره لحية فضية مهذبة. أما عيناه فكانتا تحملان ذلك البريق الهادئ الذي لا تملكه إلا الأرواح التي عركتها الحياة طويلًا.

شعرت صديقتي بالقلق و همست:

هل سيطردنا ؟

ابتسم الرجل قبل أن نكمل حديثنا.

وكأنه سمع همسها.

ثم قال بصوت دافئ :

كلا يا ابنتي.

و انحنى قليلًا تحيةً.

من دخل حدائق قصر هوهنشتافن فهو آمن.

تنفست الصعداء.

أما الرجل فأكمل :

اسمحا لي أن أقدم نفسي. أنا الأمير فردريك هوهنشتافن، سيد هذه الأرض وحامي هذه المقاطعة.

ثم نظر إلى القصر نظرة امتزج فيها الفخر بالحزن.

و قال :

هذا القصر ورثته عن أجدادي. لكنه لم يكن دائمًا بهذا الجمال.

جلسنا معه تحت شجرة بلوط عتيقة. وكانت الشمس تميل نحو الغروب. أما صوته فقد أخذ ينساب كأنه صفحة من كتاب قديم.

قال :

شهد هذا القصر مآسي كثيرة خلال الصراعات بين الجرمان والبوهيميين. في تلك السنوات السوداء اقتربت قوات القائد تزكا من هذه المنطقة.

ثم أطرق رأسه.

كان رجلًا لا يعرف سوى النار.

وسكت قليلًا.

كأن الذكريات تؤلمه.

ثم تابع :

أرسل فرقة إلى هنا. نهبوا القصر. قتلوا الخدم. سرقوا التحف. حطموا الثريات النادرة. ثم أشعلوا النار في كل شيء.

رفع بصره نحو السماء.

كنت طفلًا حينها.

وتغير صوته فجأة. صار أكثر خشونة.

ما زلت أذكر لون اللهب. وما زلت أسمع صرخات النساء. وما زلت أشم رائحة الخشب المحترق.

ثم قال كمن يحدث نفسه :

بعض الجراح لا يداويها الزمن.

وسكت.

فهمت في تلك اللحظة أن الرجل لم يكن يروي تاريخًا. بل كان يروي ألمًا شخصيًا.

وكانت عيناه البعيدتان تغوصان في بحر من الذكريات.

قالت صديقتي برقة :

لكن القصر اليوم تحفة فنية.

ابتسم الأمير.

ولأول مرة عاد النور إلى وجهه.

نعم.

ثم قال :

لأن الله منحني فرصة ثانية.

و أضاف :

حين آل القصر إليّ أقسمت ألا أترك الخراب ينتصر.

وأعاد بناءه حجرًا حجرًا. وجناحًا جناحًا. حتى عاد كما كان. بل ربما أجمل مما كان.

وأضاف :

الإنسان يُهزم حين يتوقف عن المحاولة، لا حين يسقط.

وفجأة دوّت أبواق طويلة عند بوابة القصر. وتحرك الخدم مسرعين وامتلأت الساحة بالضيوف.

سألت :

ما المناسبة ؟

ابتسم الأمير ابتسامة عريضة.

و قال :

الليلة هي أجمل ليالي عمري.

ثم أردف :

أو بالأحرى... أجمل ليالي ابنتي.

الأميرة ؟

نعم. اسمها مارجريت. لكننا ندعوها ريتا.

وحين نطق اسمها، تبدلت ملامحه كلها.

كان ذلك وجه أبٍ لا وجه أمير. وجه رجل يرى قطعة من قلبه تستعد لعبور عتبة جديدة في الحياة.

قلت:

لا بد أنها تشبهك في رقة الخلق.

ضحك بفخر ظاهر.

و قال :

إنها جميلة الجميلات وأميرة الأميرات.

ثم أضاف :

الليلة تتم خطبتها إلى الأمير جوهان كونرادين.

وسرعان ما خفتت ابتسامته قليلًا.

لقد ذهب إلى الحرب مع ابني كازيمير. وكانا صديقين منذ الطفولة. قاتلا جنبًا إلى جنب. وشهدا الموت معًا مرات لا تحصى.

ثم تمتم :

الحرب تجعل الرجال يكبرون أسرع مما ينبغي.

وسكت لحظة.

ثم قال :

قبل رحيله طلب مني وعدًا. أن أزوجه ابنتي إن عاد حيًا. ووعدته.

سألت صديقتي :

وهل وافقت الأميرة ؟

ضحك الأمير بصوت عالٍ.

و قال :

وكيف لا توافق ؟ إنهما متحابان منذ الصغر. لعبا معًا تحت هذه الأشجار. وتعلما الفروسية في هذه الساحات. وكبرا معًا.

ثم تنهد.

لكن الحب في زمن الحرب يشبه شمعة في مهب الريح.

كل يوم تخشى أن تنطفئ.

ثم رفع رأسه نحو القصر المضاء.

وقال بصوت مفعم بالأمل :

الحمد لله أن الهدنة عقدت أخيرًا. وعاد الفرسان إلى ديارهم. وعاد جوهان ليطالبني بوعدي.

ثم ابتسم.

ولهذا اجتمع النبلاء الليلة. البارونات. والكونتات. والأمراء. والأميرات. كلهم هنا.

سألت :

وأين العريس ؟

نظر نحو الطريق المؤدي إلى الغابة.

و قال :

سيصل قريبًا. الجميع ينتظره. حتى ابني كازيمير يعد له استقبالًا يليق بصديق العمر.

ثم نهض من مكانه. ومد يده نحونا.

وقال :

هيا.

ادخلا القصر. فالليلة ليست ليلة عادية.

ثم أضاف بصوتٍ غامضٍ جعل قلوبنا تنقبض دون سبب واضح :

و أحيانًا... تبدأ أعظم المآسي في أكثر الليالي بهجة.

فنظرنا إلى بعضنا في صمت.

بينما كانت أبواق الاحتفال تتعالى من الداخل...

ولم نكن نعلم أن أبواب القدر قد بدأت تُفتح ببطء، وأن خلف أضواء الخطوبة وأصوات الموسيقى كانت تنتظر القصرَ أسرارٌ أقدم من الحرب، وأشد ظلمةً من ليل الجبل الأقرع نفسه.

الغرفة التي تهمس في الظلام

بين أضواء القصر وأسرار الأسطورة

دخلنا القصر مع الداخلين، فإذا بنا نعبر من عالم مألوف إلى عالم آخر يكاد يكون من نسج الأحلام. كان الترف يفيض من كل زاوية كما يفيض العطر من وردة فتية عند مطلع الربيع. الثريات البلورية تتدلى من السقوف العالية كأنها نجوم اقتطعت من السماء وعلقت في فضاء القاعات، فتكسرت عليها الأضواء آلاف الشظايا الذهبية والفضية.

أما الجدران فقد ازدانت برسوم الفرسان والملوك وأعلام الأسر النبيلة، وغطتها طنافس شرقية فاخرة جُلبت من بلاد بعيدة عبر البحار والجبال. وكانت المقاعد والمناضد منحوتة من أخشاب نادرة، ينساب على سطوحها بريق الزمن القديم وهيبة التاريخ.

ولم يكن رواد القصر أقل روعة من القصر نفسه.

كان الرجال يرتدون أفخر ما عرفت أوروبا من حلل الفرسان والنبلاء؛ عباءات مطرزة بالخيوط الذهبية، وسيوف ذات مقابض مرصعة بالأحجار الكريمة. أما السيدات فقد بدون كأنهن أميرات خرجن من صفحات الملاحم القديمة؛ تيجان رقيقة، وعقود من الماس والياقوت والزمرد، وثياب زاهية الألوان تتراقص فوقها أنوار الشموع فتزيدها جمالاً وسحراً.

كان كل شيء ينطق بأنه من القرن الثالث عشر؛ القرن الذي امتزجت فيه البطولة بالأسطورة، والإيمان بالخرافة، والحب بالموت.

التفتُ إلى صديقتي وهمست :

—أما عن تسريحات الشعر، فحدثي ولا حرج. انظري إلى تلك الضفائر المذهبة، وإلى تلك التيجان المنسوجة من الزهور واللآلئ!

ابتسمت صديقتي وهي تتأمل الحضور ثم قالت :

لا شك أن هذه الليلة ستظل حديث الناس أعواماً طويلة.

ثم أشارت بيدها نحو صدر القاعة.

انظري... أليست تلك هي العروس ؟

حدقتُ في الفتاة التي كانت تجلس إلى جوار والدها الأمير.

قلت :

نعم... أظنها هي. لقد أخبرنا الأمير منذ قليل أن اسمها مارجريت.

وسكتُّ لحظة.

كانت مارجريت آية من آيات الجمال.

لم تكن جميلة فحسب، بل كانت أشبه بتحفة فنية صنعها فنان بلغ ذروة الإلهام. وجهها ناصع الصفاء، وعيناها بلون السماء ساعة الفجر، وشعرها الذهبي ينساب فوق كتفيها كخيوط الشمس.

كانت في مطلع شبابها، في ذلك العمر الذي تكون فيه الأحلام أكبر من الواقع.

ومع ذلك... كانت هناك مسحة خفية من القلق ترتسم فوق وجهها الطاهر.

قلت لصديقتي :

هل ترين ما أرى ؟

ماذا ؟

ذلك الحزن الخفيف في عينيها.

تأملتها ملياً ثم أومأت.

نعم... كأنها تنتظر شيئاً تخشى ألا يأتي.

ابتسمت و قلت :

و ما العجب في ذلك ؟ إنها تنتظر عريسها وحبيبها.

صحيح... ما اسمه ؟

حاولت أن أتذكر. ثم قلت :

الأمير جوهان كونرادين.

وقبل أن ترد، دوى خارج القصر صخب مفاجئ.

ارتفعت الأصوات، وهرع بعض الخدم إلى النوافذ.

فقلت بحماس :

لقد وصل !

قالت صديقتي :

من ؟

العريس بالطبع.

و سرعان ما انتشر الخبر بين المدعوين.

لقد بلغ الأمير جوهان حدائق القصر على صهوة جواده.

شعرتُ بأنفاس مارجريت تتسارع.

كان وجهها يضيء شيئاً فشيئاً كما تضيء الأرض حين تنشق عنها أول أشعة الصباح.

همستُ لنفسي :

هذه هي لحظة العمر. لحظة انتظرتها الفتاة أعواماً طويلة. و لحظة انتظرها العريس أيضاً. بل وحتى والدها الأمير فردريك هوهنشتافن.

وبعد دقائق فُتحت الأبواب الكبرى. ودخل الأمير جوهان.

كان شاباً وسيماً، عريض الكتفين، يفيض وجهه بالشجاعة والثقة. وعلى الرغم من أناقته الملكية، فقد بدت فيه ملامح الفارس الذي اعتاد ساحات الحرب أكثر مما اعتاد قاعات الاحتفال.

وكان إلى جواره صديقه الأقرب وشقيق خطيبته الأمير كازيمير.

استقبل الحضور العريس بالتصفيق والهتاف.

ورأيت مارجريت تنهض من مقعدها.

أما جوهان فقد نسي كل شيء. نسي الموسيقى. ونسي الضيوف. ونسي القاعة بأكملها.

كان يرى شخصاً واحداً فقط. مارجريت.

وسرعان ما بدأت مراسم الخطوبة.

وشهدنا واحداً من أجمل الاحتفالات التي يمكن أن يشهدها إنسان. موائد طويلة امتلأت بألوان الطعام. وجعة ألمانيا الشهيرة تتنقل بين

المدعوين. وعازفون يملؤون القاعة ألحاناً نبيلة رقيقة. أما الرقص فكان أشبه بلوحة حية تتحرك على أنغام الموسيقى.

لكن الخطيبين كانا في عالم آخر. انسحبا إلى ركن هادئ بعيد.

جلسا يتحدثان همساً. يتبادلان كلمات لا يسمعها أحد.

وكان واضحاً أن أعوام الفراق والحروب صنعت بينهما شوقاً لا تكفيه ليلة واحدة.

وفي أثناء ذلك دوى صوت ضاحك عند الباب.

كان الأمير كازيمير. التف حوله عدد من الشبان والشابات.

وقال بصوت مرتفع :

ما رأيكم يا أصدقائي ؟ هل نترك العاشقين فيما هما فيه من مناجاة، أم نشرك عريس الحفل في القضية التي حيرت عقولنا ؟

تعالت الضحكات.

فقال أحدهم :

دعهما وشأنهما.

و قال آخر :

بل أشركه معنا.

وأضافت فتاة:

نعم، ليشاركنا حل هذا اللغز.

ابتسم كازيمير ابتسامة ماكرة. ثم نادى:

يا جوهان ! لقد رأيتك أسداً في المعارك. ورأيتك تقتحم صفوف الأعداء دون خوف. لكن هل تملك الشجاعة نفسها إذا كان خصمك هذه المرة... السحر ؟

التفت الجميع نحو العريس.

أما جوهان فضحك قائلاً :

آه يا كازيمير ! لن تكف عن ألاعيبك ما حييت.

بل أتكلم بجد هذه المرة.

وأي سحر هذا ؟

خفض كازيمير صوته فجأة. ثم قال :

الغرفة المسحورة.

ساد صمت غريب. ورأيت بعض الخدم يتبادلون النظرات. بينما علت وجه الأمير فردريك ابتسامة ساخرة.

قال:

ها قد بدأ ولدي لعبته المفضلة.

ثم التفت إلينا وأضاف :

لا تأخذوا كلامه على محمل الجد. فهو مولع بالفكاهات التي تزرع الحيرة في العقول.

لكن كازيمير لم يتراجع. بل قال :

إذن يا أبي ، أخبرهم أنت. أليست هناك أسطورة قديمة عن غرفة خفية في هذا القصر ؟

تنهد الأمير فردريك.

ثم أجاب :

أسطورة فقط.

لكنها مشهورة في المنطقة كلها. وهذا لا يجعلها حقيقة.

تقدمت فتاة شابة وقالت :

سيدي الأمير، إن أهل غابات براندنبرج وغابات سيجفريد يتحدثون عنها منذ أجيال.

أجاب الأمير :

الناس يحبون الأساطير.

ثم أضاف بنبرة حازمة :

ليس في قصري غرفة مسحورة.

قلت :

ولكن لماذا يكذب الجميع ؟

نظر إليّ الأمير ملياً. ثم قال :

لأن الخيال أكثر إغراءً من الحقيقة.

وسكت لحظة.

ولأن الإنسان يحب أن يصدق ما يخيفه.

كانت كلماته عميقة.

وتذكرت حكمة قديمة :

الخوف يصنع من الظل وحشاً، ومن الهمسة إعصاراً.

لكن شيئاً ما في عيني الأمير أثار شكوكي. كان يتحدث بثقة... ومع ذلك بدا كأنه يخفي أمراً لا يريد البوح به.

قال أحد الشبان :

وأين تقع هذه الغرفة المزعومة ؟

أجاب الأمير :

يقول الخدم إنها في الجناح القديم الذي نجا من الحريق أيام الحرب مع البوهيميين.

ثم لوح بيده باستخفاف.

خرافات لا أكثر.

غير أن كازيمير ضحك قائلاً :

والعجيب يا أبي أن الخرافات لا تموت أبداً.

ثم التفت إلى جوهان.

هل تعلم أن من يدخلها لا يخرج كما دخل ؟

قال جوهان مازحاً :

وهل يتحول إلى ضفدع ؟

تعالت الضحكات.

لكن كازيمير لم يضحك. بل قال بصوت منخفض :

لا.

ثم أضاف :

بل يخرج وهو يعرف شيئاً عن نفسه لم يكن يعرفه من قبل.

ساد صمت أثقل من سابقه.

شعرت بقشعريرة تسري في جسدي.

أما مارجريت فقد بدا عليها الاضطراب. ورأيتها تخفض رأسها فجأة.

عندها انتبهت إلى أمر غريب. لقد ارتسم الخوف على وجهها منذ ذُكرت الغرفة. خوف حقيقي. ليس خوفاً من حكاية للأطفال. بل خوف شخص يعرف أكثر مما ينبغي.

وتساءلت في نفسي :

هل تعرف مارجريت سر الغرفة ؟

وهل كان القلق الذي رأيته في عينيها منذ بداية الحفل مرتبطاً بهذه الأسطورة ؟

راحت الأسئلة تتزاحم في رأسي.

أما الأمير فردريك فقد أنهى الحديث قائلاً:

كفى حديثاً عن الأشباح والأساطير. الليلة ليلة فرح.

لكنني لم أستطع تجاهل ذلك الإحساس الغامض الذي بدأ يتسلل إلى قلبي. كان القصر مضيئاً. وكانت الموسيقى لا تزال تعزف. وكان الضيوف يضحكون ويرقصون.

غير أنني شعرت فجأة بأن وراء هذه الأضواء كلها ظلاً قديماً ينتظر. وظلاً يعرف من الأسرار أكثر مما يعرفه البشر.

وفي تلك اللحظة لم أكن أعلم أن تلك الغرفة ، التي سخر منها الجميع، ستغير مصير كل من كان حاضراً في تلك الليلة.

فكم من باب ظنه الناس موصداً على الفراغ ، فإذا وراءه قدر كامل يترقب ساعة الظهور.

وكما قال الحكيم : **إذا أراد القدر أن يتكلم، جعل الصدفة لسانه.** وكان القدر قد بدأ بالفعل يهمس من خلف الجدران العتيقة للقصر.

الغرفة المسحورة

حين دعا المجهول فارسًا إلى أبوابه

كانت ليلةً من تلك الليالي التي تبدو وكأن الزمن قد نسي أن يمضي بعدها خطوةً واحدة. ليلةٌ ترفرف فوقها أجنحة الفرح، وتتعانق فيها أنوار القناديل مع ظلال الجدران العتيقة، حتى ليخال المرء أن القصر كله قد استيقظ من سبات القرون ليشهد عرسًا استثنائيًا من أعراس النبلاء.

ارتفعت الموسيقى في أرجاء القاعة الكبرى، وانسكبت الألحان كجدولٍ فضيٍّ بين أفواج المدعوين. كانت الشموع المصطفة على الثريات تتراقص ألسنة لهبها كأنها راقصات صغيرات يحتفلن مع الحاضرين، بينما تناثرت الضحكات والهمسات في الأركان كعصافير وجدت أخيرًا شجرةً آمنةً للمبيت.

في صدر القاعة جلست العروس ريتا، تتلألأ في ثوبها الأبيض كنجمةٍ هبطت من سماء الشتاء لتستريح فوق الأرض ليلةً واحدة. وإلى جوارها جلس عريسها يوهان، الفارس الشاب الذي ذاع صيته في ميادين القتال، وعُرف بين الرجال بشجاعته ورباطة جأشه.

لكن العجيب أن حديثًا واحدًا كان كفيلًا بأن يطغى على أصداء الموسيقى وضجيج الاحتفال. حديث الغرفة المسحورة. مجرد ذكرها كان كافيًا ليجذب الأسماع كما يجذب القمر أمواج البحر.

اقتربنا من الحلقة التي تجمع الشبان والشابات حول العروسين، حيث كان الأمير كازيمير، شقيق ريتا الأصغر، يتصدر المجلس بوجهه المرح وعينيه اللامعتين اللتين لا تخفيان ميلًا فطريًا إلى المشاكسة وإثارة الفضول.

انحنى قليلًا نحو يوهان وقال بنبرةٍ حملت من المزاح بقدر ما حملت من الجدية:

أخبرني يا صديقي... يا زوج أختي العزيز... هل وعيت أمر تلك الغرفة ؟

رفع يوهان حاجبيه وقال مبتسمًا :

أي غرفة ؟

الغرفة التي يتحدث عنها الجميع، ولا يجرؤ أحد على الاقتراب منها.

ضحك يوهان وقال :

يبدو أنني الوحيد في هذا القصر الذي لم يسمع عنها بما يكفي.

صفق كازيمير بيديه ضاحكًا :

أسمعتِ يا أختاه ؟ ها هو يعلنها صراحةً ! ها هو يصر على تحدي سحر الغرفة !

تغير وجه ريتا قليلًا، وانطفأت ابتسامتها لحظةً قصيرة.

ثم قالت في رجاءٍ واضح :

أرجوك يا كازيمير... لا تفسد الحفل بهذه القصة.

نظر إليها شقيقها مبتسمًا، لكنه أدرك أن وراء كلماتها شيئًا من القلق الحقيقي.

فقال :

حسنًا، حسنًا... العروس أمرت، ولا مفر من طاعة أوامرها في ليلة عرسها.

ثم التفت إلى يوهان وأضاف بخبث :

لكن اعترف على الأقل بأنك تخشى ما تخشاه سائر الناس.

أخشى ماذا ؟

الغرفة.

ضحك يوهان ضحكةً قصيرة.

لقد وقفت في وجه السيوف والرماح، وسمعت صرخات الموت في ساحات الحرب، فما الذي يجعلني أخشى غرفةً مغلقة ؟

هز كازيمير رأسه قائلًا :

لأن السيف عدوٌ تراه، أما ما يسكن تلك الغرفة فلا يراه أحد.

ساد صمتٌ قصير. كان صمتًا صغيرًا، لكنه استطاع أن يبرد شيئًا من حرارة المجلس.

قال يوهان :

وما الذي يسكنها ؟

اقترب كازيمير أكثر وخفض صوته :

الحراس.

أي حراس ؟

حراس أشداء... ليسوا من بني البشر.

تبادلت الوجوه النظرات.

وقال يوهان ساخرًا :

جنٌّ ومردة ؟

ابتسم كازيمير ابتسامةً غامضة.

من يدري ؟

تدخلت ريتا بسرعة :

كازيمير، أرجوك.

ثم التفتت إلى زوجها وقالت :

لا تنصت إليه. إنه يحب الحكايات القديمة أكثر مما يحب الحقيقة.

لكن كازيمير لم يستسلم.

قال وهو يرفع كأسه :

أقسم أنني لم أضف حرفًا واحدًا إلى ما يقوله أهل المنطقة منذ أجيال.

ثم أردف:

كل ما في الأمر أن صديقنا العزيز لا يعلم شيئًا عن أشهر أسرار هذا القصر.

شعر يوهان بأن فضوله بدأ يستيقظ. وكان الفضول نقطة ضعفه القديمة.

فكم من مرةٍ ساقه الفضول إلى معركة ؟ وكم من مرةٍ جرّه إلى أبوابٍ كان العقل يأمره بالابتعاد عنها ؟

قال في نفسه :

إن الإنسان لا يُهزم حين يسقط أمام الخطر، بل حين يخضع للخوف قبل أن يراه.

وكان أبوه يردد دائمًا :

ومن يتهيب صعود الجبال يعش أبد الدهر بين الحفر

ابتسم وهو يستعيد البيت الشعري.

ثم قال بصوتٍ مرتفع :

وأين تقع هذه الغرفة ؟

تنهدت ريتا كأنها رأت ما كانت تخشاه يحدث أمامها.

أما كازيمير فقد تهللت أساريره.

وقال :

في قلب هذا القصر.

في أي جناح ؟

في جناحٍ شبه مهجور.

ثم أضاف بصوتٍ شاعري:

هناك... حيث تبدو الممرات الطويلة كأنها ذكرياتٌ ضلت طريقها بين القرون. وحيث تقف الأبواب القديمة مثل حراسٍ متعبين من السهر. وحيث تقع الغرفة نفسها... كأنها سرٌّ حائر في فم أخرس.

تأمل يوهان الوصف قليلًا.

ثم قال :

ولماذا تصفها بأنها حائرة ؟

هنا خفتت الابتسامة عن وجه كازيمير. و قال :

لأن أحدًا لا يعرف حقيقتها.

سكت لحظة. ثم تابع :

بعضهم يقول إنها أقدم من القصر نفسه. وبعضهم يقول إن بناء القصر كله كان من أجلها. وهناك من يزعم أن أميرًا مجنونًا خبأ فيها كنزًا لا يقدر بثمن. بينما يؤكد آخرون أنها تخفي لعنةً قديمة.

قالت ريتا بضيق :

كازيمير...

لكنه أكمل :

والأغرب من ذلك أن كل من حاول البقاء فيها ليلةً كاملة خرج منها قبل الفجر.

لماذا ؟

لأن الحراس كانوا يطردونه.

وكيف ؟

لا أحد يعلم.

ساد الصمت من جديد.

وفي تلك اللحظة شعر يوهان بشيءٍ غريب. كان عقله يقول إن الأمر مجرد خرافة. لكن قلبه... كان يشعر بنداءٍ غامض. كأن بابًا بعيدًا فُتح في أعماقه فجأة.

وتذكر كلمات حكيمٍ عجوز قابله ذات يوم :

إن أخطر الأبواب ليست تلك التي نراها مغلقة، بل تلك التي نشعر بأنها تنادينا.

قالت ريتا بصوتٍ خافت :

أرجوك يا يوهان... لا تفكر في الأمر.

التفت إليها.

فرأى في عينيها قلقًا لم يعتد رؤيته. كانت تعرفه أكثر من الجميع. تعرف أن الفضول عنده لا يقل قوةً عن الشجاعة. وأن الرجل الذي لا يخشى الموت قد يخاطر بنفسه من أجل لغزٍ صغير.

قالت :

دع الغرفة وشأنها. دعها لقصص الخدم والعجائز. هذه ليلة فرحنا.

نظر إليها طويلًا.

ثم ابتسم ابتسامةً حانية.

لكن شيئًا في داخله لم يكن قد اقتنع.

كان يسمع كلماتها. في الوقت نفسه كان يسمع صوتًا آخر ينبعث من أعماقه :

ماذا لو كانت الحقيقة هناك ؟ماذا لو كانت الأسطورة تخفي شيئًا لم يكتشفه أحد ؟ أيمكن لفارسٍ أن يرفض دعوة المجهول ؟

لقد خاض الحروب كلها تقريبًا. ورأى من أهوال العالم ما يكفي. لكن الإنسان لا يحارب الوحوش الخارجية فقط. بل يحارب أيضًا وحش الفضول الكامن في نفسه. وكان هذا الوحش قد استيقظ الآن.

قال كازيمير مبتسمًا :

هل تنوي أن تجرب حظك معها ؟

أجاب يوهان فورًا :

ولم لا ؟

ضحك بعض الجالسين.

لكن ريتا لم تضحك. قالت :

أتتحدى أشباحًا لا تراها ؟

فأجاب :

ربما.

قال كازيمير:

حتى لو كانوا الحراس الأشداء ؟

حتى لو كانوا.

وحتى لو فشل كل من سبقك ؟

أطرق يوهان برأسه لحظة. ثم رفعه وقال :

إن الإنسان لا يعرف حدود قوته حتى يختبرها.

ثم أضاف :

ومن طلب المجد نام قليلًا. ومن طلب الراحة عاش مجهولًا.

هنا تنهدت ريتا. كانت تعرف أن الأمر انتهى. فالقرار قد اتخذ بالفعل. ولم يبق إلا تنفيذه.

أما يوهان فكان يشعر بشيءٍ يشبه الحماسة التي تسبق المعارك.

ذلك الاضطراب اللذيذ الذي يجمع بين الخوف والشوق. بين العقل والرغبة. بين الحكمة والجنون.

قال كازيمير :

إذن ما زلت مصرًا ؟

وقف يوهان.

وتوقفت بعض الأحاديث القريبة حين نهض.

كان طويل القامة ، عريض الكتفين ، يملك حضورًا يفرض نفسه على المكان.

ثم قال بصوتٍ ثابت :

نعم.

أريد أن أرى تلك الغرفة. أريد أن أعرف لماذا يخشاها الناس. وأريد أن ألتقي أولئك الحراس الذين لا يراهم أحد.

ابتسم كازيمير ابتسامة المنتصر.

أما ريتا فأغمضت عينيها لحظةً قصيرة. كأنها كانت تسمع خطوات قدرٍ يقترب.

وقال يوهان أخيرًا :

لقد حاربت أعداءً كثيرين ورأيت وجوههم.

آن الأوان أن أتحدى عدوًا لا أراه.

ثم مد يده نحو كازيمير وقال :

هيا... خذني إلى هذه الغرفة. خذني إلى قلب السر.

الغرفة التي يحرسها الزمن

كان الليل قد أرخى ستائره المخملية على القصر العتيق ، واشتعلت الشموع في القاعات الكبرى كنجوم صغيرة هبطت من السماء لتستريح فوق الثريات البلورية. وكانت الموسيقى تتسلل من بعيد كأنها أنفاس حلم قديم، بينما امتزجت ضحكات الأمراء والنبلاء برنين الكؤوس وأصوات المباركات التي ملأت أرجاء المكان في تلك الليلة السعيدة.

وفي قلب تلك الأجواء المفعمة بالفرح ، جلس الأمير جوهان إلى جوار خطيبته ريتا، تحيط بهما وجوه الأصدقاء والأقارب. كان الجميع يحتفل بقرب زفافهما، إلا أن الأمير كازيمير، شقيق ريتا، بدا كعادته مولعًا بإثارة الجدل وإشعال شرارات الفضول في النفوس.

وفجأة ارتفع صوت الأب ، وقد علت وجهه ابتسامة واسعة :

لقد بلغ الأمير ذروته يا كازيمير. دع هذه القصة لليلة أخرى ، فنحن الليلة في عيد وفرح ، ولا أريد أن تفسد علينا السهرة بحكاياتك الغريبة.

ثم التفت إلى جوهان قائلاً :

لا تشغل بالك بما يقوله كازيمير يا بني ، فهو عاشق للمزاح ، ويجد لذته في إخافة الناس أكثر مما يجدها في سماع الموسيقى.

لكن كازيمير هز رأسه مبتسمًا وقال :

أبتِ، أنت تعلم أن الأمر ليس مجرد مزحة. إنها تجربة... محاولة لمعرفة المدى الذي يمكن أن تبلغ إليه شجاعة صديقي الأمير جوهان.

عندها رفع جوهان رأسه ، وفي عينيه بريق التحدي الذي لم يغب عنه منذ ساحات القتال.

إلى الغرفة إذن يا كازيمير... خذني إليها.

ساد الصمت لوهلة.

واختفت الابتسامة من وجه ريتا. شحب لونها كأن ريحًا باردة مرت بقلبها فجأة، وقالت بصوت مرتجف :

جوهان... لا تذهب.

ثم أعادت القول وكأنها ترجوه للمرة الأخيرة :

أرجوك... لا تذهب.

التفت إليها جوهان متعجبًا. لم يكن الخوف مألوفًا في عينيها.

كانت فتاة نشأت بين الأمراء والفرسان، ولم يعرف عنها الوهن أو الجبن.

قال برفق :

ولماذا أخاف ؟

أجاب كازيمير قبلها :

هل تعرف حقيقة العدو الذي ينتظرك في تلك الغرفة ؟

ابتسم جوهان وقال :

قلت إن هناك حراسًا من الجن والمردة. أما ما الذي يحرسونه فلا أعلم.

اتسعت ابتسامة كازيمير.

إنهم يحرسون عدوًا لا يشبه أي عدو عرفته في حياتك.

ومن يكون ؟

اقترب كازيمير خطوة ، ثم قال بصوت خافت :

الزمن.

تجمدت الوجوه. حتى الموسيقى القادمة من القاعة المجاورة بدت وكأنها خفتت فجأة.

أما جوهان فضحك.

الزمن ؟

نعم... الزمن نفسه.

ثم أردف :

عدو لا تنفع معه السيوف ، ولا تجدي أمامه الشجاعة ، ولا ينفع في مواجهته كرّ ولا فرّ. عدو هزم الملوك والفاتحين والأنبياء والحكماء، وساوى بين التاج والتراب.

عندها قالت ريتا بغضب :

كازيمير! أما زلت مصرًا على هذه السخافات ؟

لكن كازيمير تجاهلها. كان ينظر إلى جوهان وحده.

أما جوهان فقد شعر بشيء غريب يتسلل إلى نفسه. كان يعلم أن الحكاية خرافة. ومع ذلك... كان هناك شيء في صوت كازيمير يجعل الخرافة تبدو أقرب إلى الحقيقة. شيء يشبه الظل الذي يمر على القلب في ليلة ساكنة دون سبب واضح.

قال :

قصتك مشوقة، لكنني لا أفهم ما الذي تريد الوصول إليه.

ضحكت ريتا و قالت :

لأنه لا يوجد شيء أصلًا. إنها مجرد أسطورة من الأساطير التي يجيد أخي نسجها.

فالتفت إليها كازيمير بسرعة وقال :

خرافة ؟

ثم أشار نحو الممر المظلم المؤدي إلى الأجنحة القديمة.

إذن اذهبي إليها وحدك.

ارتبكت.

أنا ؟ !

نعم. اذهبي وأثبتي أنها خرافة.

خفضت بصرها.

ولكنني...

ولكنك خائفة.

ساد الصمت.

أكمل بصوت هادئ:

خائفة كما هو خائف، وخائفة كما نحن جميعًا. لأنك تعلمين أن ما أقوله يحمل شيئًا من الحقيقة.

ثم رفع صوته فجأة :

من منكم لا يخاف الزمن ؟

نظر الجميع إلى بعضهم. ولم يجب أحد.

قال :

نحن نخاف المرض لأنه يسرق أعمارنا. ونخاف الشيخوخة لأنها مرآة الزمن. ونخاف الموت لأنه آخر رسائله إلينا.

ثم ضحك :

هيا أيها السادة... عشرة آلاف مارك لمن يثبت أن الغرفة لا تخفي شيئًا. من يتقدم ؟

كانت العيون تتجنب النظر إلى الممر البعيد.

وفجأة نهض جوهان.

أظن أنني سأربح رهانك يا عزيزي كازيمير.

تعالت الهمهمات. وصفق بعض الشباب إعجابًا.

أما كازيمير فانحنى ساخرًا.

ها هو فارسنا الشجاع.

ثم أخرج كيسًا صغيرًا من الجلد ووضعه على الطاولة.

عشرة آلاف مارك كاملة.

قال جوهان :

أقبل.

ثم أضاف :

لكن بشرط.

وما هو ؟

أن أعرف كل شيء عن تلك الغرفة قبل أن أدخلها.

نظر كازيمير إلى الحاضرين.

هل نخبره بالقصة ؟

فضحك بعض أصدقائه.

ولم لا ؟

بينما قال آخر :

لنكمل اللعبة حتى النهاية.

تنهدت ريتا.

أرجوكم كفى.

لكن أحد الشبان قال ضاحكًا :

يبدو أن بطلنا بدأ يتراجع.

فاستدار جوهان نحوه بعينين حادتين.

لم أتراجع قط.

ثم تابع :

ولكن الرجل العاقل لا يدخل أرضًا مجهولة قبل أن يعرف طبيعتها.

ابتسم كازيمير.

جواب يليق بأمير وقائد.

ثم رفع كأسه قائلاً:

أيها السادة... لقد عثرنا أخيرًا على الفتى الذي سيواجه الغرفة المسحورة وما يختبئ فيها.

وتابع بنبرة مسرحية :

نعم يا جوهان، سترى الغرفة وتسمع أسطورتها.

هذا ما أريده.

في تلك اللحظة نهض الأب من مقعده.

وبدت على وجهه علامات القلق.

قال بجدية :

كازيمير... لقد تماديت.

كانت هذه أول مرة يتحدث فيها بتلك النبرة طوال السهرة.

لكن كازيمير لم يتراجع.

أما ريتا فقد أمسكت يد خطيبها بقوة. وكانت أصابعها باردة كأنها خرجت من ماء الشتاء.

قالت بصوت خافت :

لا تذهب.

نظر إليها جوهان.

فرأى في عينيها خوفًا لم يفهم مصدره ، خوفًا عميقًا لا يشبه خوف امرأة على رجل تحبه. بل خوف إنسان رأى في المنام مصيبته القادمة.

قالت :

أشعر وكأن شرًا عظيمًا يحوم فوق رؤوسنا هذه الليلة.

اخترقت كلماتها قلبه. وللحظة قصيرة... شعر بشيء من التردد. شيء لم يعرفه منذ سنوات.

تذكر المعارك. وتذكر السهام التي مرت قرب رأسه. وتذكر الليالي التي نام فيها فوق جثث الأعداء. لم يكن يخشى الموت.

لكنه فجأة وجد نفسه يسأل :

ما الذي يمكن أن يجعل فتاة مثل ريتا ترتجف هكذا ؟ وما الذي يجعل الأب يحاول إيقاف الأمر ؟ وما الذي يختبئ فعلًا خلف ذلك الباب ؟

لكن كبرياءه كان أقوى من تردده. وفي أعماقه كانت هناك طبيعة أخرى لا تستطيع مقاومة المجهول. كان يشعر أن الإنسان لا يعيش حقًا إلا حين يقف أمام أبواب الأسرار.

فابتسم وربت على يدها.

لقد تحداني يا حبيبتي.

ثم أضاف :

وأنا قبلت التحدي.

رفع رأسه نحو الجمع.

لا تراجع بعد الآن.

ثم قال بثقة:

تعالوا معنا أيها الأصدقاء. وأعدكم أنني سأعود بعد قليل ومعي عشرة آلاف مارك إضافية.

فضحك بعض الحاضرين. لكن الضحكات هذه المرة كانت متوترة. كأن الجميع يحاولون طرد شعور غامض تسلل إلى القاعة.

قال جوهان وهو ينظر إلى كازيمير :

سأربح رهانك، يا أمير.

فأجابه كازيمير :

سنرى.

ثم استدار متجهًا نحو أحد الممرات القديمة.

وهكذا تحرك الموكب الصغير. أمراء ونبلاء. أميرات ونبيلات. فرسان وخدم. جميعهم يسيرون خلف كازيمير عبر ردهات القصر العتيق. وكانت أقدامهم تصنع أصداء طويلة فوق الرخام البارد. ومع كل خطوة كان الضوء يقل. والموسيقى تبتعد. والدفء يتلاشى. حتى بدا كأنهم يغادرون عالم الاحتفال كله ويدخلون عالمًا آخر. عالمًا تسكنه الذكريات والظلال.

أما جوهان فكان يسير في المقدمة ، وعيناه مثبتتان على ظهر كازيمير. لكن مع كل خطوة كان يسمع صوتًا آخر في داخله. صوتًا خفيًا لا يسمعه سواه.

ماذا لو لم تكن القصة كلها كذبًا ؟

هز رأسه ساخرًا من نفسه.

أيها الأحمق... أأصبحت تخاف الحكايات ؟

لكن الصوت عاد من جديد :

وهل كل الحكايات تولد من العدم ؟

شعر بقشعريرة تسري في جسده.

فتذكر حكمة قديمة كان معلمه يرددها :

أشد الأعداء خطرًا هو الذي لا تستطيع رؤيته.

ورغم ذلك واصل السير. بل ازدادت خطواته ثباتًا. فقد كان من أولئك الرجال الذين إذا طرق الغموض أبوابهم فتحوا له، وإذا دعاهم المجهول إلى لقائه أجابوا الدعوة.

وأخيرًا... بعد ممرات طويلة ومنعطفات معتمة وسلالم حجرية عتيقة ، وصلوا إلى جناح مهجور في أقصى القصر.

هناك توقف كازيمير. ورفع المشعل عاليًا. فانكشفت أمامهم بوابة ضخمة من خشب أسود داكن. بدت كأنها قطعة من الليل نفسه. وكانت مسامير الحديد المغروسة فيها تشبه عيونًا جامدة تراقب القادمين منذ قرون.

تبادل الجميع النظرات. ولم ينطق أحد بكلمة.

أما جوهان فشعر أن قلبه يدق بقوة غير مألوفة. ليس خوفًا. ولا حماسًا. بل شعور غريب لم يعرف له اسمًا. كأن الزمن نفسه يقف خلف ذلك الباب... ينتظر.

الغرفة السحرية

همسات الزمن خلف الأبواب المغلقة

وها نحن ، بعد أن انطفأت آخر أصداء الموسيقى في قاعة الاحتفالات الكبرى، وبعد أن خفت لمعان الشموع التي شهدت حفل خطوبة الأمير جوهان كونرادين إلى الأميرة مارجريت هوهنشتافن ، نسير في أروقة القصر العتيق تحت ضوء المشاعل المرتجفة.

كانت الممرات طويلة كأنها أنفاق من الزمن، تتعانق فوقها الأقواس الحجرية التي حملت على أكتافها قروناً من الأسرار والذكريات. وخلفنا بقيت ضحكات النبلاء وتهانيهم تتلاشى شيئاً فشيئاً، حتى لم يعد يُسمع سوى وقع خطواتنا فوق الأرضية الرخامية الباردة.

كان يقودنا الأمير كازيمير هوهنشتافن ، شقيق العروس وصديق خطيبها الأقرب ، وقد ارتسمت على شفتيه تلك الابتسامة الغامضة التي لا يعرف المرء معها أهو يمزح أم يخبئ حقيقة ثقيلة.

أما الأمير جوهان فكان يسير إلى جواره مرفوع الرأس، يفيض ثقة وشباباً، وقد انعكس بريق المشاعل على ملامحه الحادة، فبدت عيناه كأنهما تتحديان الليل نفسه.

قال كازيمير وهو يلتفت نحونا :

اقتربوا أيها السادة... فما نحن مقبلون عليه ليس مجرد غرفة، بل أسطورة تعيش بين جدران هذا القصر منذ أجيال.

ضحك جوهان ضحكة قصيرة و قال :

أتقصد الغرفة السحرية التي لا تكف عن الحديث عنها ؟

بل أقصد الغرفة التي راهنتك عليها بعشرة آلاف مارك.

وما زلت أرى أنني سأربح الرهان.

هز كازيمير رأسه في مرح.

سنرى.

بلغنا أقصى جناح في القصر. كان جناحاً مهجوراً لا يرتاده أحد إلا نادراً.

ساد الصمت حتى خُيّل إلينا أن الجدران نفسها تحبس أنفاسها.

وقف كازيمير أمام باب خشبي عتيق يعلوه نقش باهت لساعة رملية يلتف حولها ثعبان. وضع يده على المقبض. لم يحتج الباب إلى مفتاح. دفعة خفيفة فقط... فانفرج ببطء.

وحين دخلنا، توقف الجميع مدهوشين. لم تكن الغرفة كما تصورناها. لم تكن كهفاً مظلماً، ولا حجرة أشباح تكسوها العناكب والغبار. بل كانت غرفة نوم من أبهى ما يمكن أن تراه عين.

مائة شمعة أو يزيد تضيء المكان بنور ذهبي ناعم. ستائر من المخمل القرمزي تتدلى في أناقة ملكية. سجاد فارسي فخم يغطي الأرض. وخزانة منحوتة من خشب الجوز. وفي الوسط فراش واسع وثير، تحيط به أعمدة مذهبة تتدلى منها ستائر حريرية رقيقة. أما النافذة الكبيرة فكانت تطل على الحديقة الخلفية للقصر، حيث تمايلت الأشجار في ضوء القمر كأطياف صامتة.

لفت جوهان حوله طويلاً ثم قال :

لا تقل يا كازيمير إن هذه هي الغرفة المسحورة !

بل هي بعينها.

إنها آية في الجمال والترف.

وهذا ما يجعلها أكثر خطراً.

رفع جوهان حاجبيه دهشة.

أخطر؟ أترى في هذا الجمال خطراً ؟

نعم.

ثم أشار بيده قائلاً :

ادخل يا جوهان. تجول فيها. افتح النوافذ. المس الجدران. افحص الأثاث. لا شيء فيها يخفي سره للناظرين.

اقترب جوهان من النافذة وفتحها. هب نسيم الليل بارداً منعشاً.

فقال مبتسماً :

غرفة كأي غرفة أخرى في قصركم، غير أنها أجمل قليلاً.

رد كازيمير :

مع فارق بالغ الأهمية.

وما هو ؟

سرها ليس في الجدران ولا في الأثاث... بل في الهواء الذي تتنفسه الآن.

فضحك جوهان.

هراء جميل يصلح لحكايات العجائز.

ثم أشار إلى الفراش قائلاً :

وحتى هذا الفراش الوثير يغري بالنوم أكثر مما يثير الخوف.

وفجأة اندفعت ريتا نحوه. كانت شاحبة الوجه، ترتجف كأن برداً خفياً تسلل إلى عظامها.

وقالت بسرعة :

لا تلمس الفراش يا جوهان !

نظر إليها متعجباً.

ولماذا ؟

لأنه غريمك الحقيقي.

ابتسم ساخراً.

أتخوفينني من جماد ؟

بل أحذرك مما يختبئ وراء الجماد.

ساد الصمت.

كانت عيناها معلقتين بالفراش في رعب حقيقي.

وأضافت بصوت خافت :

إن الغيب يسكن بين طيات هذا الفراش.

قال جوهان ضاحكاً :

يبدو أنكم جميعاً وقعتم أسرى لهذه الأسطورة.

لكن ريتا لم تضحك. بل ازدادت شحوباً. لنغادر هذه الغرفة.

ما بك ؟

لا أعلم... لكنني أشعر أن هناك من يراقبنا.

ثم همست :

كأن وجوهاً خفية تحيط بنا. وكأن في عيونها شراً لا يوصف.

اقترب منها جوهان وأمسك يدها برفق.

وقال بصوت حنون :

أتخافين وأنا معك ؟

رفعت عينيها إليه. وفيهما خوف لا يشبه خوف الأطفال ، بل خوف الإنسان حين يشعر بوجود شيء لا يستطيع تفسيره.

قالت :

بعض الأشياء لا يطردها السيف ولا الشجاعة.

هنا ابتسم كازيمير ابتسامة غامضة.

و قال :

لا تغضبي حراس الغرفة يا ريتا.

حراس الغرفة ؟

نعم.

ومن هم ؟

خدم الزمن.

الأمناء على أسراره.

إن أُمروا أطاعوا، وإن صمتوا أخافوا.

قهقه جوهان.

ما زلت بارعاً في صناعة الأوهام كما كنت أيام الجيش.

ثم أضاف:

ثلاث سنوات ونحن نتزامل في ساحات القتال ، ولم أرك يوماً تؤمن بالخرافات.

تغيرت ملامح كازيمير قليلاً. وبدا كأن ظلاً عابراً مر في عينيه.

و قال :

لم أكن أؤمن بها... حتى دخلت هذه الغرفة.

ساد الصمت.

وأحس الجميع بشيء غريب يتسلل إلى الأجواء. شيء لا يُرى. ولا يُلمس. لكن حضوره كان ثقيلاً.

أما جوهان فحاول أن يحافظ على ابتسامته الساخرة.

غير أن شيئاً في داخله بدأ يتحرك.

كان عقله يقول له :

كل هذا عبث .

لكن قلبه كان يهمس :

ولماذا إذن تشعر بهذا الانقباض ؟

راح يتأمل المكان من جديد. الجدران. الشموع. الستائر. الفراش.

كل شيء طبيعي. بل بالغ الجمال.

ومع ذلك... كان هناك شعور خفي. شعور يشبه الوقوف على حافة بئر لا يُرى قاعها.

فكر في نفسه :

هل يمكن أن ينتقل الخوف بين البشر كما تنتقل العدوى ؟ هل أثرت فيّ كلماتهم ؟ أم أن لهذه الغرفة فعلاً روحاً خاصة ؟

اقترب كازيمير من النافذة.

وأخذ ينظر إلى الحديقة المظلمة.

ثم قال :

أتدري يا جوهان كيف بدأت الحكاية ؟

هات ما عندك.

قبل مائتي عام كان هنا أمير عجوز حكم هذه المقاطعة أربعين سنة. وكان مهووساً بفكرة واحدة.

ما هي ؟

الانتصار على الزمن.

ضحك جوهان.

وهذه معركة خاسرة منذ بدء الخليقة.

نعم.

لكنه لم يقتنع بذلك.

فجمع الفلاسفة والكيميائيين والمنجمين. وأنفق ثروة كاملة بحثاً عن سر الخلود.

ثم ؟ ثم مات.

قالها كازيمير ببطء.

لكنه مات في هذه الغرفة.

وساد الصمت ثانية.

وأضاف :

ومنذ ذلك اليوم بدأت الحكايات.

كل من نام هنا رأى شيئاً. كل من قضى ليلة كاملة في هذا الفراش خرج منه إن خرج... شخصاً آخر.

قال جوهان :

مجرد أوهام ليلية.

رد كازيمير:

ربما.

لكن الحكمة تقول : ليس كل ما لا نراه معدوماً.

أخذ الليل يزداد عمقاً. وكان القمر قد ارتفع عالياً فوق الأشجار. وأصبح ضوءه يمتزج بضوء الشموع. فبدت الغرفة كأنها عالقة بين عالمين. عالم الأحياء. وعالم الذكريات.

شعر جوهان فجأة بثقل غريب في صدره. وتذكر طفولته. وتذكر والده الراحل. وتذكر معارك خاضها وظن أنه نسيها.

لماذا تتدفق هذه الصور الآن ؟ و لماذا هنا ؟

تساءل في داخله:

هل نحن من يحمل الماضي ؟ أم أن الماضي هو الذي يحملنا ؟

وتردد في ذهنه قول الحكيم : من عرف نفسه عرف حدود أيامه.

أحس للحظة أن الغرفة لا تخيف الجسد. بل تواجه الروح. تجبر الإنسان على النظر إلى أعماقه. إلى ما يهرب منه. إلى الذكريات المدفونة. إلى الأسئلة التي يؤجلها.

وفجأة تحرك لهب إحدى الشموع بعنف. ثم أخرى. ثم ثالثة. مع أن الهواء كان ساكناً.

التفت الجميع.

وشعرت ريتا بأن الدم قد تجمد في عروقها.

أما كازيمير فظل صامتاً.

في حين وقف جوهان مكانه. لا خوفاً... بل دهشة. قال بصوت منخفض:

هل رأيتم ؟

أجاب كازيمير :

نعم.

ما تفسير هذا ؟

لا أعلم.

ثم أضاف :

لكن الغرفة بدأت تستيقظ.

وفي تلك اللحظة شعر جوهان لأول مرة أن الرهان لم يعد مجرد لعبة بين صديقين. وأن ما ينتظره خلف هذه الليلة قد يغير حياته كلها. وكان الزمن نفسه، من وراء ستائر الظلام، يبتسم ابتسامته الغامضة، منتظراً أن يكشف أول أسراره.

غرفة الساحرة

إن للظلم ساعة يمرح فيها، ثم تأتي عليه ساعة يذوق فيها من الكأس نفسها.

ساد الصمت لحظات في القاعة العتيقة، حتى خُيِّل للحاضرين أن الجدران نفسها قد أخذت تنصت إلى الحديث. كانت الريح تعبر شقوق النوافذ العالية كأنها أنين أرواح بعيدة، فيما راحت ألسنة اللهب المرتعشة في الموقد ترسم على الجدران أشباحاً متراقصة، تزيد المكان رهبة وغموضاً.

قال الشيخ الراوي بصوت خافت، كأنما يستخرج الكلمات من أعماق زمن سحيق :

الفرق في هذا السر أنه لم يكن من نسج الخيال، ولم تصنعه مخيلة القصاصين. إنها قصة قاسية كالحقيقة حين تلامس القلب العاري، وأشد مرارة من الذكرى حين تعود بعد أعوام طويلة.

ثم أطرق قليلاً و أردف :

حدثت هذه الوقائع ، أيها الأحباء ، في أيام الاحتلال البوهيمي ، تلك الأيام السوداء التي امتدت فيها الحرب بيننا وبين البوهيميين سنوات طويلة. سالت فيها الدماء، واحترقت القرى، وذبلت الحقول تحت سنابك الخيل. احتلوا أجزاء واسعة من أرضنا، وفرضوا سلطانهم على الناس بالنار والحديد.

تنهد الشيخ و قال :

نعم ، لقد طردناهم في النهاية ، وانتصر الحق على الباطل ، ولكن المحتل حين يرحل لا يأخذ معه كل شروره. يبقى بعضها عالقاً في الأرض ، وبعضها يسكن البيوت والقصور، وبعضها يتحول إلى لعنة لا تزول بسهولة.

وأشار إلى سقف القاعة المرتفع.

وهذا القصر بالذات كان شاهداً على واحدة من أبشع تلك اللعنات.

ساد الصمت مجدداً.

كان جوهان يتابع الحديث بعينين متقدتين فضولاً ، بينما بدت على الوجوه الأخرى علامات الترقب.

قال الشيخ :

اختار أحد أمراء البوهيميين هذا القصر مقراً لإقامته. كان أميراً شاباً في عمر القوة، لكنه يحمل قلباً أشد قسوة من الحجر. لم يكن يكتفي بالسلطة ، بل كان يتلذذ بإذلال الناس وإخافتهم.

ثم استطرد :

ما من بيت في المنطقة إلا وطرقته مصيبة من مصائبه. وما من أسرة إلا وكانت لها معه حكاية من الظلم أو الفقد أو المهانة.

وأضاف بصوت عميق :

ولقد شاعت عن مفاسده ومباذله قصص كثيرة، بعضها حقيقي وبعضها بالغ فيه الناس حتى صار أقرب إلى الأساطير. لكن الحقيقة وحدها كانت كافية لإثارة الرعب.

سكت قليلاً ثم قال :

كان شريراً إلى الحد الذي يجعل المرء يتساءل: كيف يمكن لإنسان أن يحمل كل هذا الظلام في صدره؟

>

في إحدى ليالي الشتاء، كان الأمير يجلس في هذه القاعة نفسها.

كان يحدق في النار المشتعلة أمامه، لكن أفكاره كانت أبعد من ألسنة اللهب. لم يكن يخاف البشر. قتل رجالاً كثيرين. وأفقر أسرًا كثيرة. وأذل خصوماً لا يحصون. ومع ذلك كان يشعر بنقص غامض.

قال في نفسه :

لقد امتلكت الأرض... فلماذا لا أمتلك ما وراء الأرض ؟

كان الطمع قد تجاوز المال والسلطان. أراد القوة المطلقة. أراد أن يعرف الأسرار التي يخشاها الناس. أراد أن يمد يده إلى المجهول.

ومن هنا بدأت حكايته مع الساحرة.

>

كانت الساحرة عجوزاً غريبة الأطوار، تعيش في كوخ منعزل عند أطراف الغابة. يتجنبها الناس نهاراً وليلاً.

وكان الأمير يستخدمها في كثير من أعماله الخفية. كانت تصنع له السموم. وتخبره بما تسمعه في القرى. وتثير الرعب في نفوس البسطاء بما تنشره من خرافات.

لكن الساحرة لم تكن خادمته. كانت تخشاه وتكرهه في آن واحد. وكانت تعرف أن الشرير الذي يخدمه الناس اليوم قد يلتفت غداً ليبتلعهم.

وفي إحدى الليالي قال لها الأمير :

علميني أسرارك.

رفعت رأسها ببطء.

أي أسرار ؟

كل ما تعرفينه.

و لماذا ؟

ابتسم ابتسامة باردة.

لأنني أريد ذلك.

قالت:

ليست كل الأبواب تُفتح يا مولاي.

فارتسم الغضب على وجهه.

أنا من يقرر ما يُفتح وما يُغلق.

لكن الساحرة صمتت. وكان في عينيها شيء لم يفهمه الأمير يومئذ. شيء يشبه انتظار ساعة الحساب.

قاطعه أحد الجالسين قائلاً :

وهل كانت الساحرة وحدها ؟

ابتسم الشيخ ابتسامة خفيفة.

لا.

ثم أضاف :

كان لها كنزها الوحيد. ابنتها.

ساد الصمت.

أكانت لها ابنة ؟

نعم.

شابة في مقتبل العمر. رفافة الحسن. نقية القسمات. كأن الربيع قد اختار أن يتجسد في هيئة إنسان. وكان جمالها حديث المنطقة كلها. لكن جمالها لم يكن أعظم ما فيها. لقد كانت تمتلك قلباً رقيقاً لم تفسده حياة العزلة ولا سمعة أمها المخيفة. كانت تحلم بحياة بسيطة. ببيت صغير. وزوج يحبها. وأطفال يملؤون المكان ضحكاً.

أما السحر والظلام فلم تكن ترى فيهما سوى لعنة.

وكانت تقول لأمها كثيراً :

ما قيمة المعرفة إذا جعلت الناس يخافونك ؟

فتشيح العجوز بوجهها دون جواب.

>

وذات يوم لمحها الأمير. وكانت تلك بداية المأساة.

نظر إليها كما ينظر الذئب إلى حمل ضائع. ومنذ تلك اللحظة لم تغب عن تفكيره.

صار يرسل الرسائل. ثم الهدايا. ثم الأوامر.

لكن الفتاة كانت ترفض. وكان رفضها يوقظ في نفسه جنون التملك. فهو لم يتعلم أن يسمع كلمة لا.

قال لنفسه :

كيف ترفضني ؟ أنا الذي ترتعد البلاد من اسمي !

لكن الكبرياء الجريحة أشد خطراً من السيف.

>

وفي ليلة مجهولة التفاصيل اختفت الفتاة. اختفت كما يختفي النور حين تهب عاصفة سوداء.

بحثت عنها أمها في الغابات والوديان. طرقت أبواب القرى. سألت الجنود والخدم والمسافرين. ولم تجد جواباً.

مرت الأيام. ثم بدأت الهمسات تنتشر.

وقال الناس :

الأمير قتلها.

لم يكن أحد يملك دليلاً. لكن الجميع صدقوا ذلك. لأن الشرير لا يحتاج إلى دليل حتى يُتهم بالشر.

وكانت الساحرة تسمع تلك الهمسات. فتزداد نار الحقد في صدرها اشتعالاً. وفي الليل كانت تجلس وحدها. تنظر إلى الباب المغلق. كأنها تنتظر عودة ابنتها.

ثم تبكي. وكان بكاؤها صامتاً كالموت.

>

مرت الشهور. وعاد الأمير يطالبها بأسرار السحر. مرة. ثم أخرى. ثم ثالثة.

حتى أدركت أن الساعة التي انتظرتها قد جاءت.

قالت في نفسها :

إن الله يمهل ولا يهمل.

وفي مساء عاصف حضر إليها.

و قال بلهجة آمرة :

انتهى صبري.

علميني كل شيء.

رفعت رأسها ببطء. وكانت عيناها العجوزتان تخفيان بحراً من الألم.

ثم قالت :

حسناً.

تجمد الأمير مكانه.

لم يصدق موافقتها السريعة.

فسأل :

أتراجعين نفسك ؟

لا.

ستكشفين لي الأسرار كلها ؟

كلها.

ارتسمت على وجهه ابتسامة المنتصر.

أما هي فكانت تبتسم ابتسامة أخرى لا يفهم معناها.

قالت له :

إن أسرار فنوني كلها كامنة في غرفة واحدة داخل هذا القصر.

أي غرفة ؟

و أشارت إلى الباب الحجري القديم.

تلك الغرفة.

تطلع إليها الأمير.

هذه ؟

نعم.

ثم أضافت :

كانت فيما مضى مليئة بالأباليق والقوارير ومساحيق السحر وأدوات الصنعة كلها.

وماذا أفعل ؟

قالت بصوت هادئ :

اقض فيها ليلة كاملة.

نظر إليها متشككاً.

ليلة واحدة فقط ؟

ليلة واحدة.

ثم أردفت :

فإذا أشرقت الشمس كنت قد تعلمت كل ما تعلمته طوال عمري.

حدق فيها طويلاً.

ثم قال :

أهذا كل شيء ؟

هذا كل شيء.

عند هذه النقطة ضحك جوهان ساخراً و قال :

ثم خرجت عليه الجن وقتلوه ! كل قصص السحرة تنتهي بهذه الطريقة.

هز الشيخ رأسه ببطء.

و ظهرت على وجهه مسحة غريبة من الأسى.

لا يا جوهان.

إذن ماذا حدث ؟

نظر الشيخ إلى الباب العتيق. كأن عينيه تخترقان الزمن.

ثم قال :

لم تقتله الجن.

بل حدث له ما هو أشد من الموت. وأقسى من القتل. وأطول عذاباً من كل ما يمكن أن يتخيله إنسان.

صمت الجميع.

حتى النار في الموقد بدت كأنها هدأت لتسمع بقية الحكاية.

و قال الشيخ بصوت خافت :

لأن بعض العقوبات لا تنزل على الجسد، بل على الروح. وإذا أصيبت الروح... فلا يعود الإنسان كما كان أبداً. من زرع الشوك لا يجني العنب، ومن أوقد نار الظلم احترق بدخانها قبل لهيبها.

وكانت تلك هي بداية الليلة التي غيّرت مصير الأمير إلى الأبد.

الغرفة التي سرقت خمسين عاماً

ساد الصمت في القاعة العتيقة، حتى بدا كأن الزمن نفسه قد جلس في أحد الأركان يصغي إلى الحكاية.

كانت النار تتراقص في الموقد الحجري، ترسم على الجدران ظلالاً طويلة متمايلة، فتارةً تشبه أشباحاً خارجة من قبور النسيان، وتارةً تبدو كأنها أرواح ملوك غابرين عادت تستمع إلى أخبار أحفادها.

رفع أحد الحاضرين رأسه و قال بصوت خافت :

لكن... ماذا حدث إذن ؟ أحقاً تسللت إليه الساحرة وهو نائم فذبحته ؟

ابتسم كازيمير ابتسامة غامضة ، ثم هز رأسه ببطء.

لا.

ساد الصمت ثانية.

إذن اختفى ؟

نعم... اختفى.

و كيف ؟

تنهد كازيمير ، وألقى نظرة بعيدة نحو النافذة التي كانت تتلاطم خلفها الرياح، ثم قال :

ذلك هو الجزء الأكثر رعباً في القصة.

انقطع ذكر الأمير بعد تلك الليلة. لم يعثروا على جثته. لم يسمعوا صراخه. لم يروا دمه. لم يجدوا أثراً لقدميه في الغابة.

اختفى كأنه قطرة ماء سقطت في بحر لا قرار له.

مرت الأيام. ثم الأسابيع. ثم الشهور. وبعد ذلك الأعوام.

كان الناس يتحدثون عنه في البداية، ثم بدأ اسمه يخفت شيئاً فشيئاً، حتى صار مجرد ذكرى باهتة، ثم أصبح ظلاً بعيداً لا يكاد أحد يتذكره.

قال أحد الرجال :

لعل الساحرة قتلته ودفنته في الغابة.

هز كازيمير رأسه.

لو أنها قتلته لكانت قد رحمته.

تبادل الحاضرون نظرات الحيرة.

فأكمل بصوت منخفض:

إن الموت أحياناً أهون العقوبات.

ثم سكت قليلاً، وكأنه يمنح كلماته فرصة لتستقر في القلوب.

لقد اختفى خمسين عاماً كاملة.

ارتجف بعض الجالسين. أما الآخرون فقد ظنوا أنهم لم يسمعوا جيداً.

قال أحدهم:

خمسين عاماً ؟

نعم.

وكيف عاد ؟

تنهد كازيمير و قال :

عاد كما يعود الخارج من القبر.

ظهر ذات صباح على الطريق المؤدي إلى القصر.

كان شيخاً محطماً. ظهره منحني. شعره أبيض كثلوج الشتاء. وجهه مليء بالتجاعيد العميقة. عيناه غائرتان كأنهما حفرتان في أرض يابسة.

كان يسير متكئاً على عصا، وكل خطوة منه تبدو كأنها معركة أخيرة مع الحياة.

لم يعرفه أحد. حتى الحراس الذين خدموه يوماً نظروا إليه بازدراء. وحتى الخدم الذين كانوا ينحنون أمامه بالأمس لم يروا فيه سوى متسول عجوز.

وحين أعلن اسمه ضحك الناس.

قالوا :

الأمير مات منذ نصف قرن.

قال :

أنا هو.

فازدادوا سخرية. بل إن أبناءه أنفسهم أنكروه.

كان الأطفال الذين تركهم صغاراً قد صاروا شيوخاً. وكان أحفاده قد صاروا رجالاً. وكان الذين كانوا يهابون سطوته قد رحلوا إلى القبور منذ زمن بعيد.

وقف أمام بوابة القصر طويلاً. ينظر إلى الجدران. إلى النوافذ. إلى الأبراج. إلى الأماكن التي عرفها يوماً. لكنه كان يشعر أن كل شيء غريب. حتى الهواء نفسه لم يعد هواء زمانه. وحتى الشمس بدت كأنها تشرق على عالم لا يعرفه.

عندها فقط أدرك حجم الانتقام. لم تقتله الساحرة. بل أخذت منه الحياة نفسها. حرمتْه خمسين عاماً من عمره في ليلة واحدة. نزعت من يديه شبابه وقوته وأحلامه وأيامه. ثم أعادته إلى الدنيا غريباً بين قومه.

فأي عقوبة أشد من أن يعود الإنسان إلى بيته فلا يجد فيه أحداً يعرفه ؟

وأي عذاب أقسى من أن يرى كل الذين أحبهم وقد صاروا تراباً ؟

قال أحد الحاضرين :

هذا مستحيل.

أجابه كازيمير :

نعم ، هو مستحيل... لكنه حدث.

ثم أضاف بصوت أشبه بالهمس:

حدث للأمير الشرير.

ساد الصمت من جديد.

وأخذت ألسنة النار ترسل شرارات صغيرة نحو المدخنة.

ثم قال رجل آخر :

ولكن كيف أمكن ذلك ؟

رفع كازيمير إصبعه و قال :

هنا يبدأ سر الغرفة.

كانت الساحرة أعلم الناس بفنون السحر القديمة.

ويقال إنها أمضت سنوات طويلة تدرس الكتب المحرمة المدفونة في أديرة مهجورة وكهوف منسية.

ولما قُتلت ابنتها ظلماً على يد الأمير، أقسمت أن تجعل انتقامها مثالاً تتناقله الأجيال. فضربت على الغرفة من سحرها. ورسمت على جدرانها رموزاً لا يعرف معناها إلا أهل الأسرار. ثم كتبت لعنتها الأخيرة.

وكان نصها :

كل من يقضي ليلة كاملة في هذه الغرفة ، يسقط في نوم عميق يمتد خمسين عاماً.

شهقت إحدى النساء.

أما كازيمير فأكمل :

لكنه لم يكن نوماً عادياً. كان أشبه بالموت. يتوقف فيه الزمن حول النائم. بينما يستمر العالم خارجه في الجريان. فتتعاقب الفصول. وتتساقط الثلوج. وتذبل الأزهار. وتقوم الممالك وتسقط. ويظل هو راقداً لا يشعر بشيء.

قال أحد الشبان :

لكن أي خادم كان يستطيع فتح الباب وإيقاظه في الصباح.

ابتسم كازيمير.

وهنا تكمن اللعنة الحقيقية.

ماذا تعني ؟

ما إن يدخل المرء تلك الغرفة حتى تختفي.

تختفي ؟

نعم. كأنها لم تكن موجودة قط. كأن القصر يبتلعها بين جدرانه. كأنها تنتقل إلى عالم آخر لا تدركه الأبصار. وأعجب من ذلك أن كل من في القصر ينسون أمرها. ينسون مكانها. وينسون وجودها. بل ينسون الشخص الذي دخلها. كأن سحابة من النسيان تنزل على العقول جميعاً.

صمت قليلاً ثم تابع :

لا يبقى من ذكراه شيء. ولا يذكره أحد. ولا يسأل عنه أحد. ولا يخطر اسمه على لسان إنسان. وكأن قوة خفية تمحو أثره من ذاكرة البشر.

ارتعشت العروس وهي تسمع الكلام. وأحست أن برودة غريبة تسري في أطرافها. كانت تنظر إلى الظلال المرتجفة فوق الجدران، وتشعر أن القصة لم تعد مجرد حكاية. بل أصبحت تهديداً حقيقياً يقترب منها.

قال كازيمير :

لذلك لم يجسر أحد طوال القرون الماضية على تحدي لعنة الساحرة.

وكان الحكماء يقولون:

من عرف حدود الحكمة نجا، ومن خاصم الغيب هلك.

ساد الصمت.

ثم قال أحد الضيوف مبتسماً :

قصة جميلة يا كازيمير، لكنها لا تعدو أن تكون خرافة من خرافات العصور المظلمة.

التفت الجميع إليه.

كان جوهان. واقفاً بثقة الشباب. بعينين تلمعان بالتحدي. وبابتسامة لا تعرف الخوف.

وأضاف :

لقد عاش الناس قديماً أسرى للأساطير والأوهام. أما نحن فنعرف أن لكل ظاهرة سبباً. وأنا أقبل رهانك.

ثم نهض قائلاً :

سأقضي الليلة في تلك الغرفة.

وفي اللحظة نفسها انقبض قلب العروس. شعرت كأن يداً باردة أطبقت على روحها. ونهضت مذعورة.

جوهان !

التفت إليها.

كانت عيناها تلمعان بالدموع. وصوتها يرتجف.

ماذا تنوي أن تفعل ؟

سأبيت في الغرفة.

بعد كل ما سمعته ؟

ضحك بخفة.

وهل صدقتِ هذه الحكايات ؟

اقتربت منه. وأمسكت يده بكلتا يديها. كانت تشعر أن شيئاً غامضاً يهددها. وأن قلبها يرى ما لا تراه العيون.

قالت :

إنك بهذا تقتلني.

اختفت الابتسامة قليلاً من وجهه.

ما هذا الخوف الذي لم أعرفه منك يا حبيبتي ؟

خفضت رأسها. كانت عاجزة عن تفسير ما تشعر به.

لكنه لم يكن خوفاً عادياً. كان إحساساً غامضاً يشبه الإنذار. يشبه صوتاً خفياً ينبعث من أعماق الروح.

رفعت عينيها إليه و قالت :

ألم تسمع ما قال كازيمير ؟

سمعت.

الغرفة تختفي بمن ينام فيها.

ابتسم من جديد. لكن ابتسامته هذه المرة لم تكن واثقة تماماً. ففي أعماقه كان شيء صغير قد بدأ يتحرك. شيء يشبه الشك. شيء يشبه الخوف. غير أن كبرياءه كان أكبر من أن يعترف بذلك.

وكان يحدث نفسه :

أأنا جوهان الذي هزم الفرسان في ساحات المبارزة أخاف من غرفة ؟ أأرتجف من حكاية عجوز نسجتها مخيلة الناس ؟

لكن صوتاً آخر كان يهمس في أعماقه : وإن كانت الحقيقة ؟

فأجاب نفسه بعناد : الحقيقة لا تخشى الاختبار.

غير أن قلبه، رغم كل شيء، لم يكن مطمئناً. وكأن لعنة الغرفة بدأت تمتد إليه قبل أن تطأ قدماه عتبتها.

وكان الليل خارج القصر يزداد سواداً. والريح تعوي بين الأبراج الحجرية.

أما القدر، فكان يفتح صفحته التالية بصمت...

أسطورة الغرفة السوداء

حكاية من زمنٍ كانت الخرافة فيه تُحكم قبضتها على العقول

كانت الليلة تنحدر ببطء فوق القصر العتيق ، كما تنحدر يدُ القدر على صفحة حياة إنسان لا يعلم ما كُتب له في الغيب. وفي الخارج كانت الريح تعوي بين أشجار السرو العالية، فتبدو كأنها أرواح قديمة تبحث عن أجسادها الضائعة بين ظلال الليل.

أما داخل القصر ، فقد كانت القاعات تضج بالضحكات والأنغام، وتتلألأ الثريات الضخمة فوق رؤوس النبلاء والفرسان. امتزج صوت الموسيقى برنين الكؤوس، وتعالت الأحاديث بين الحاضرين، غير أن حديثًا واحدًا كان يطغى على كل شيء؛ حديث الغرفة المهجورة في الجناح الشرقي.

كانت تلك الغرفة موضع رهبة أهل المنطقة منذ أجيال. تناقلت الألسن أخبارها كما تتناقل النار الهشيم. فمنذ زمن بعيد، قيل إن كل من نام فيها ليلة كاملة لم يرَ شمس الصباح قط. مات بعضهم فجأة، واختفى بعضهم في ظروف غامضة، حتى أصبحت الغرفة أسطورة تتوارثها الأجيال.

قال أحد النبلاء وهو يهز رأسه :

إنها أسطورة قديمة من عهد الجهل والخرافة.

فأجابه آخر وقد شحب وجهه :

خرافات يا سيدي ؟ لعلها كذلك، ولكنني لا أعرف خرافة قتلت هذا العدد من الرجال !

وانطلقت ضحكات متوترة في المجلس.

في تلك اللحظة كان الفارس جوهان واقفًا قرب النافذة، طويل القامة ، عريض المنكبين ، تعلو وجهه ملامح الثقة والكبرياء. كان من أولئك الرجال الذين يظنون أن العقل وحده قادر على تفسير الكون كله، وأن الخوف ضعف لا يليق بالفرسان.

نظر إليه كازيمير، صديقه القديم ومنافسه العنيد، وقال ساخرًا :

هل تنوي حقًا أن تقضي الليلة في تلك الغرفة ؟

رفع جوهان حاجبيه وقال بثبات :

نعم.

ابتسم كازيمير ابتسامة مشوبة بالتحدي.

لقد حذرتك.

بل أراك تتهرب من الرهان.

ضج المجلس بالضحك.

قال كازيمير:

أتهمني بالتهرب ؟

أجل.

إذن أرفع الرهان إلى عشرين ألف مارك.

ساد الصمت لحظة.

كان المبلغ ضخمًا حتى بالنسبة للنبلاء الحاضرين.

اقترب أحدهم و قال :

إذا أردت نصيحتي يا جوهان، فلنهمل الأمر كله ونعد إلى حفلنا. لا فائدة من اختبار الأساطير.

لكن جوهان أجاب بحزم :

كلا. لقد قبلت التحدي لا طمعًا في المال، بل لأثبت لكم جميعًا أنكم أسرى أوهام وخرافات. سأقضي الليلة هناك، وسأستيقظ صباحًا لأتناول الإفطار معكم، ثم أطالب كازيمير أمام الجميع بالرهان.

قالها وهو يبتسم ابتسامة الواثق المنتصر.

غير أن شخصًا واحدًا لم يشارك الآخرين تلك الابتسامة.

كانت ريتا. وقفت عند طرف القاعة وقد غمر القلق عينيها الواسعتين. كان وجهها شاحبًا كضوء القمر خلف السحاب.

اقتربت منه وهمست :

أتوسل إليك يا جوهان... لا تفعل.

نظر إليها بحنان.

ألهذه الدرجة تخافين من حكايات العجائز ؟

ارتجف صوتها :

لا أخاف الحكايات... أخاف عليك.

شعر جوهان بشيء يهتز في أعماقه.

كان يحبها حبًا صادقًا ، لكن كبرياءه كان أقوى من أن يتراجع أمام الناس.

قال ضاحكًا :

وها هو أخوك يتهمني بالخوف من الخرافات !

أجابت وعيناها تمتلئان بالدموع :

دعهم يقولون ما يشاؤون. ماذا يهمك رأي الناس إذا كان ثمن ذلك حياتك ؟

في تلك اللحظة تسلل صمت ثقيل إلى قلب جوهان. ولأول مرة، منذ بدأ هذا الحديث، شعر بوخزة خفية من التردد.

لقد سمع القصص كلها. سمع عن الفارس الذي دخل الغرفة ضاحكًا وخرج منها جثة باردة. وسمع عن التاجر الذي اختفى دون أثر. وسمع عن الصرخات التي كان الحراس يؤكدون أنهم سمعوها في منتصف الليل.

لكنه سرعان ما طرد هذه الأفكار.

قال في نفسه :

إن العقل إذا استسلم للخوف رأى الأشباح في كل زاوية. ليست الأشباح سوى ظلال يصنعها الجهل.

قالت ريتا وهي تمسك يده :

لا تقتلني يا حبيبي. أشفق عليّ وعلى شبابك.

ثم التفتت إلى أخيها :

لا تدعه يفعل يا كازيمير.

هز كازيمير كتفيه وقال :

إذن فلنغادر جميعًا هذه الغرفة وننسَ الأمر. هيا يا جوهان، لنعد إلى الحفل.

لكن جوهان أفلت يده من يد ريتا برفق وقال :

اذهبوا أنتم كما تشاؤون. أما أنا فسأقضي الليل هنا.

ثم نظر إلى السرير الضخم القابع في وسط الغرفة وقال مبتسمًا :

يبدو الفراش وثيرًا، والجو يساعد على النوم.

ثم أضاف وهو يحدق في ريتا :

إلى اللقاء يا حبيبتي... أراك في الصباح.

انهمرت دموعها.

جوهان... لا تكن عنيدًا.

سنضحك جميعًا غدًا. سأشبع كازيمير سخرية ، ثم آخذ ماله أمام الجميع.

حاول أن يبدو مرحًا، لكن شيئًا غامضًا كان يتحرك في أعماقه. كان قلبه، لأول مرة، لا يخفق بإيقاع النصر بل بإيقاع انتظار مجهول.

ولأن الإنسان مهما بلغ من شجاعة يبقى أسيرًا لذلك الجزء الخفي من روحه الذي يرتجف أمام المجهول.

قال أحد الحكماء قديمًا :

إن الإنسان لا يخاف ما يعرفه ، بل يخاف ما يعجز عن فهمه.

ولعل جوهان في تلك اللحظة بدأ يدرك معنى تلك الحكمة. اقترب من باب الغرفة. وراح يراقب أصدقاءه وهم يغادرون واحدًا تلو الآخر.

كانت أقدامهم تبتعد في الممر الطويل. وكانت ريتا آخر من غادر. التفتت نحوه للمرة الأخيرة. كان الدمع يلمع فوق وجنتيها.

وقالت بصوت مكسور :

وداعًا يا جوهان...

ثم سكتت لحظة كأنها تقاوم نبوءة سوداء خرجت من أعماقها.

وأردفت:

وداعًا... سأظل أنعاك ما بقي لي من عمر إن لم أرك غدًا.

أُغلق الباب. واختفت الأصوات. وساد الصمت. ذلك الصمت الذي يشبه الفراغ بين نبضتين.

وقف جوهان وحده. وحده تمامًا. لا موسيقى. لا ضحكات. لا نور إلا ضوء شمعة مرتجفة فوق المنضدة.

نظر حوله. كانت الجدران العتيقة تبتلع الضوء. والظلال تتمدد فوق الأرض كأنها مخلوقات صامتة تستيقظ ببطء.

عندها فقط شعر بشيء بارد يمر في عروقه. وتساءل لأول مرة :

ماذا لو كانوا جميعًا على حق ؟

ثم ضحك من نفسه. لكن ضحكته ارتدت إليه غريبة... غريبة إلى حد أنه لم يعرف أهي ضحكته حقًا... أم ضحكة شخص آخر في الغرفة ؟ !

الغرفة التي ابتلعت خمسين عامًا

كانوا بالأمس يضحكون.

وكان الأمير جوهان أكثرهم ضحكًا وثقةً بنفسه، يجلس في صدر القاعة بين النبلاء والفرسان، تتراقص أضواء الشموع على كأسه البلورية، وتنعكس على عينيه الزرقاوين بريقًا من الفتوة والاعتداد.

وحين حذّرته ريتا من الغرفة المهجورة في الجناح الشرقي للقصر، ضحك ضحكة الشبان الذين لم يذوقوا بعدُ مرارة الأيام، وقال وهو يلوّح بكأسه :

غدًا سترونني بينكم على مائدة الإفطار، ألتهم خبزي وعسلي ، وأطالب كازيمير بالرهان أمام الجميع !

فضحك الحاضرون ، بينما هزّت ريتا رأسها في أسى وقالت :

كلا يا سيدي... بعض الأبواب إذا فُتحت لا تُغلق كما كانت.

لكن أحدًا لم يُصغِ إلى كلماتها.

وكان الليل قد بسط عباءته السوداء على القصر، وألقى فوق الأبراج القديمة سكونًا عجيبًا، كأن الزمن نفسه قد جلس على الأسوار يراقب ما سيحدث.

>

ومع أول خيط من خيوط الفجر ، تحرّك الأمير جوهان في فراشه. فتح عينيه ببطء. شعر بثقل غريب في جسده، كأن النوم لم يكن راحة، بل معركة طويلة خرج منها مهزومًا.

تمتم وهو يحاول النهوض:

يا لها من ليلة...

ثم أغمض عينيه لحظة وأخذ نفسًا عميقًا.

لقد نمت نومًا لم أنمه قط. لعل الشمس ارتفعت ، ولعلهم الآن ينتظرونني على مائدة الإفطار... لا بد أن كازيمير يظنني هاربًا من الرهان.

حاول أن يضحك. لكن الضحكة خرجت ضعيفة مرتجفة.

توقف. شيء ما لم يكن طبيعيًا. شيء ما كان خطأ.

أراد أن يعتدل في فراشه، فشعر بألم يسري في مفاصله كلها.

ارتجفت يداه. ثقلت ساقاه. وبدا له جسده كبيت قديم نخرته الرطوبة.

قال في نفسه :

ما هذا الوهن ؟

ثم حدّق في كفيه. كانت الأصابع ترتجف. والجلد شاحبًا. والعروق نافرة كجذور أشجار هرمة.

فأحس بخفقة خوف.

لا... لا يمكن.

ألقى الغطاء عن جسده. فازداد اضطرابه. لم يكن يشعر بقوة الشباب التي اعتادها. لم يكن يشعر بخفة الحركة التي طالما تباهى بها. بل أحس كأن سنوات طويلة استقرت فوق كتفيه دفعة واحدة. وعندها بدأ الخوف يتسلل إلى قلبه. ذلك الخوف البارد الذي يشبه زحف الشتاء إلى غابة مهجورة.

رفع رأسه ينظر حوله. فتجمد الدم في عروقه. الغرفة ليست هي الغرفة. أو لعلها هي... لكن الزمن مرّ عليها كإعصار.

الجدران التي كانت براقة غطاها السواد. والستائر الفاخرة صارت خيوطًا ممزقة. والتراب استقر فوق الأثاث حتى بدا كأنه طبقة من الرماد. أما خيوط العناكب فقد تدلت من السقف كأعلام الحداد. والشمعدانات الذهبية أكلها الصدأ.

همس في ذهول :

ما هذا ؟

ثم ارتفع صوته :

ما هذا ؟ !

أخذ يحدق حوله بعينين متسعتين.

كان قلبه يخفق بعنف. وكان عقله يرفض أن يصدق ما تراه عيناه.

وفجأة شعر بشيء يلامس صدره. أنزل بصره. فرأى لحية طويلة بيضاء تنساب فوق ثوبه.

تراجع خطوة. ثم أخرى. وارتطمت ساقاه بالمقعد. مد يده المرتعشة إلى لحيته. تحسسها. جذبها بقوة. كانت حقيقية.

صرخ:

لا !

ورأى على الجدار المقابل مرآة قديمة. اندفع نحوها مترنحًا. وقف أمامها.

وسكت. سكت طويلًا. كأن العالم كله توقف. الرجل الذي في المرآة لم يكن يعرفه. وجه غطته التجاعيد. عينان غائرتان. شعر أبيض. ملامح أرهقها العمر.

حدق فيه الرجل من داخل المرآة.

وحدق هو فيه.

ثم همس:

من أنت ؟

ولم يجبه أحد. إلا الصمت.

فهمس مرة أخرى :

من أنت ؟

ثم جاءت الإجابة من أعماقه كطعنة :

أنت.

ارتد إلى الخلف. واختنق صوته.

لا...

وأخذ يهز رأسه بعنف.

لا... لا يمكن... أنا جوهان... أنا في الخامسة والعشرين... بالأمس فقط كنت...

ثم صمت. لأن كلمة بالأمس نفسها أصبحت مخيفة.

ما هو الأمس ؟ و أين ذهب ؟ و هل ما زال موجودًا أصلًا ؟

>

في تلك اللحظة ، ارتجف.

لأن الزمن الذي كان يراه نهرًا هادئًا، بدا فجأة وحشًا مفترسًا.

وأدرك للمرة الأولى أن الإنسان لا يخسر ماله حين يمضي العمر. بل يخسر نفسه.

تحامل على جسده. و سار نحو الباب. كان يشعر كأنه يحمل جبلًا فوق ظهره.

فتح الباب بعنف. وخرج إلى الرواق. لكن الرواق كان خاليًا. لا خدم. لا حراس. لا أصوات. لا حياة. مجرد صمت. صمت كثيف كالمقابر.

قال بصوت مرتفع :

ريتا !

لم يجب أحد.

كازيمير !

لا أحد.

الأمير فردريك !

ارتد صوته إليه من الجدران الباردة. فأحس بوحدة لم يعرفها في حياته.

وهمس :

يا رب... ماذا حدث ؟

وبينما هو واقف في حيرته، سمع وقع أقدام بطيئة تقترب. التفت. فرأى رجلًا عجوزًا يرتدي زيّ الخدم. كان يمشي متكئًا على عصاه. وحين اقترب انحنى باحترام ، و قال :

ماذا يأمر سيدي ؟

حدق جوهان فيه.

ثم سأله :

من أنت ؟

قال العجوز :

خادم في هذا القصر يا سيدي.

قطب جوهان حاجبيه.

لم أرك من قبل.

ابتسم الخادم ابتسامة هادئة.

هذا طبيعي يا سيدي.

كيف ؟

لأنك لم ترني قط.

ازداد اضطراب الأمير.

وقال :

كنت أعرف جميع خدم الأمير فردريك.

فأجاب الرجل :

كنتُ يومًا من خدمه أيضًا.

ثم أطرق برأسه و أضاف :

رحمه الله.

تجمد جوهان.

ماذا قلت ؟

الأمير فردريك... رحمه الله.

ماذا تعني ؟

مات منذ زمن بعيد.

منذ متى ؟

منذ خمسين عامًا تقريبًا.

كأن صاعقة نزلت على رأسه.

فحدق فيه غير مصدق.

خمسين عامًا ؟ !

قال الخادم في هدوء :

نعم يا سيدي.

شعر جوهان أن الأرض تميد تحت قدميه. وأن الهواء صار أثقل من أن يُتنفس.

همس:

مستحيل...

ثم رفع رأسه فجأة.

وأين الأمير كازيمير ؟

نظر الخادم إليه باستغراب.

وقال :

لحق بوالده منذ عشرة أعوام.

أغلق جوهان عينيه. وأحس أن قلبه يتمزق.

لا...

ثم فتحهما بعنف.

لقد كنت معه البارحة !

ابتسم الخادم ابتسامة مشفقة. تلك الابتسامة التي يبتسمها الشيوخ لمن يروي أحلام الصبا.

و قال :

يبدو أنك تستعيد ذكريات بعيدة يا سيدي.

شعر جوهان بالإهانة والغضب واليأس في آن واحد.

وصاح :

ذكريات ؟ !

ثم ضرب الأرض بعصاه التي لم يعتد حملها.

أيها الرجل ! لقد كنت مع كازيمير ليلة أمس !

ليلة أمس ؟

نعم !

وماذا كان عمره ؟

خمسة وعشرون عامًا.

هز الخادم رأسه. و قال :

حين مات كان في السبعين.

فساد الصمت. صمت ثقيل. صمت يشبه سقوط مدينة كاملة.

في تلك اللحظة شعر جوهان أن شيئًا انكسر داخله. ليس الأمل. بل اليقين. ذلك اليقين الذي يجعل الإنسان يعرف من هو وأين يقف. أما الآن فقد صار غريبًا عن نفسه. وغريبًا عن زمانه. وغريبًا حتى عن ذكرياته.

وتذكر حكمة قديمة :

من عاش في غير زمانه، عاش غريبًا ولو كان بين أهله.

فأحس أن هذه الكلمات كُتبت لأجله وحده.

قال الخادم أخيرًا :

لعل من الأفضل أن أدعو الأمير جيروم فردريك.

رفع جوهان رأسه ببطء.

من يكون ؟

أجاب الرجل :

حفيد حفيد الأمير فردريك.

عندها فقط أدرك الحقيقة. الحقيقة التي كان عقله يرفضها. الحقيقة التي كانت أقسى من الموت نفسه. لقد نام ليلة واحدة.

لكن العالم مضى خمسين عامًا. خمسون عامًا ابتلعها الظلام. خمسون عامًا مات فيها الأحبة. وشاخت فيها الوجوه. وتبدلت فيها الممالك. وخمدت فيها ضحكات الأمس.

أما هو... فقد استيقظ ليجد نفسه شاهدًا على جنازة عمره كله.

ووقف في الرواق الطويل ، تحدق عيناه في الفراغ، بينما أخذ صدى الكلمات يتردد في أعماقه :

خمسون عامًا... خمسون عامًا... خمسون عامًا...

وكان الزمن، ذلك العدو الخفي الذي لا يُرى ، يبتسم له من وراء ستار الغيب.

خمسون عامًا في ليلة واحدة
بين لعنة الزمن وقبر الحبيبة

وانصرف الخادم مطأطئ الرأس ، يلتفت بين الفينة والأخرى نحو الرجل الذي ظنه شيخًا غريبًا هبط من غياهب المجهول، ثم أغلق الباب وراءه في هدوء، فغرق المكان في صمت كثيف يشبه صمت المقابر.

ظل الأمير جوهان كونرادين واقفًا في وسط الغرفة، كأن الأرض قد انسحبت من تحت قدميه، وكأن الجدران التي عرفها بالأمس قد ارتدت وجهًا آخر لا يعرفه.

راح يتلفت حوله بذهول.

أهذه هي الغرفة نفسها ؟ الغرفة التي شهدت ضحكات الأمس، وتعالت فيها أصوات الأصدقاء، وترددت بين جدرانها أحاديث الحب والمستقبل ؟

كيف تحولت فجأة إلى مكان موحش، تكسوه الكآبة كما يكسو الضباب قمم الجبال ؟

اقترب من المرآة المعلقة على الجدار.

ارتجفت يداه.

نظر. ثم تراجع خطوة إلى الخلف. كأن صاعقة ضربته. رأى وجهًا غريبًا يحدق فيه. وجهًا نحتت الأيام أخاديدها فوقه. وجهًا غزته التجاعيد كما تغزو الأعشاب جدران القلاع المهجورة. ولحية بيضاء كثيفة تنحدر على صدره.

همس بصوت مبحوح:

لا... لا... هذا ليس أنا.

عاد يقترب. لامس وجهه المرتجف. فإذا بالتجاعيد حقيقية. وإذا باللحية حقيقية. وإذا بالشيب يملأ رأسه.

جلس على طرف السرير وقد أخذت أنفاسه تتلاحق.

وقال يحدث نفسه :

ماذا جرى لي ؟

ليلة واحدة فقط... ليلة واحدة قضيتها هنا. كيف تتبدل الدنيا في ليلة ؟ كيف يشيخ الإنسان خمسين عامًا بين غمضة عين و انتباهتها ؟ هل أنا نائم ؟ هل ما زلت في حلم ؟ أم أنني مت بالفعل ؟

وتردد صوته في أرجاء الغرفة :

كازيمير...

ثم أطرق رأسه.

أحقًا مات كازيمير ؟ أحقًا مرت عليه عشرات السنين ؟ أحقًا ضاعت حياتي كلها وأنا غارق في نوم مجهول ؟

أحس أن عقله يتمزق بين احتمالين كلاهما أشد قسوة من الآخر.

فإما أن يكون مجنونًا. وإما أن يكون ما سمعه حقيقة. وكانت الحقيقة أكثر رعبًا من الجنون.

رفع عينيه إلى السقف وقال:

يا رب...

إن كانت هذه لعنة الساحرة فقد أصابتني إصابة لا دواء لها.

لقد سرقت عمري. سرقت شبابي. سرقت أحلامي. سرقت كل شيء.

ثم هبط اسم واحد إلى قلبه كما تهبط قطرة ماء باردة على جمر مشتعل.

مارجريت.

ارتجف. وغامت عيناه.

مارجريت...

يا زهرة أيامي. يا أجمل ما عرفته روحي. أين أنت الآن ؟ هل ما زلت تنتظرين ؟ هل شاب شعرك أنت الأخرى ؟ هل نسيتني ؟ أم أنك متّ قبلي ؟

وسقط رأسه بين كفيه.

ولأول مرة منذ طفولته بكى. بكى بحرقة رجل أدرك أن الزمن أقسى من السيوف. وأن ما تعجز عنه الحروب تفعله السنوات في صمت.

و قال في مرارة :

وأنا ضاعت مني خمسون ألف دقيقة... بل ضاع العمر كله.

ولم يطل به الحزن حتى سمع وقع خطوات تقترب من الباب.

ارتفع رأسه.

وانفتح الباب ببطء. دخل الخادم أولًا. وخلفه رجل وقور جاوز الستين بقليل. كان طويل القامة، أبيض الشعر، عريض الجبهة، تتجلى على ملامحه هيبة الأمراء وتجارب السنين. توقف عند الباب. وتأمل جوهان طويلًا.

ثم التفت إلى خادمه و سأله :

أهذا هو الرجل ؟

أجاب الخادم :

نعم يا مولاي.

ثم أضاف هامسًا :

ولكنه هرم متهالك كما أخبرت مولاي.

قال الرجل :

أذكر ذلك.

فقال الخادم :

وهو يهذي كثيرًا أيضًا يا مولاي.

اقترب جوهان منهما.

وقال بغضب :

أتحسبان أن الشيخوخة أذهبت سمعي ؟

ساد الصمت لحظة.

ثم تقدم الرجل بخطوات هادئة و قال :

عذرًا أيها الشيخ الجليل. لقد أخبرني خادمي بأمرك. وقال إنك ترغب في مقابلة الأمير كازيمير. وأعترف أن هذه الرغبة أثارت عجبي. فالأمير كازيمير... رحمه الله... هو والدي. وقد توفي منذ عشر سنوات بعد أن جاوز السبعين.

ثم أردف بلطف :

فإن كان لك دين عنده قضيناه. وإن كانت لك حاجة تركها عندنا أديناها.

نظر إليه جوهان كأن الكلمات تتساقط فوق رأسه كالحجارة.

وقال بصوت مرتعش :

والدك ؟

الأمير كازيمير والدك ؟

نعم.

مستحيل !

ثم صرخ :

سأجن ! أقسم أنني سأجن !

ثم اندفع يقول :

استمع إلي أيها السيد الكريم. أنا لست شيخًا كما تظنان. أنا الأمير جوهان كونرادين. خطيب الأميرة مارجريت ابنة الأمير فردريك هوهنشتافن.

وأمس فقط... نعم أمس... كنت هنا مع الأمير كازيمير وأصدقائنا.

فضحك الخادم.

وتبادل مع سيده نظرة خفية.

ثم همس :

ألم أقل لمولاي إنه مجنون ؟

فالتفت إليه جوهان بعينين متقدتين :

ويلك !

لقد سمعتك. لا تكرر هذه الكلمة. فإن المصاب يكفيني.

أما الرجل الوقور فقد بقي صامتًا. وكان ينظر إلى جوهان بعينين يختلط فيهما الشك والشفقة.

ثم قال :

أيها الشيخ الكريم.

إن الذاكرة قد تخدع الإنسان حين يتقدم به العمر. وأخشى أن يكون هذا ما أصابك. فالأمير كازيمير الذي تتحدث عنه عاش عمره كله ثم مات منذ زمن بعيد. وها أنا اليوم شيخ مثلك أو قريب منك. ولم يبق بيني وبين الرحيل إلا سنوات قليلة.

سكت لحظة. ثم قال :

أما حديثك عن الأمس...

فذلك أمر لا يستطيع العقل فهمه.

نظر جوهان حوله. إلى الوجوه. إلى الشيب. إلى الصمت. إلى القصر الذي فقد روحه.

وقال :

عجيب...

أي عصر هذا ؟ وأي زمن ؟ أين أولئك الفرسان الذين كانوا يملؤون المكان ضجيجًا ؟ أين الموسيقى؟ أين الضحكات ؟ أين الشباب ؟ أرى حولي وجوهًا غزاها الزمن. وأرى قصرًا يئن تحت ثقل السنين. وكأنني خرجت من قبر لا من غرفة.

تنهد الرجل.

وقال في أسى :

يبدو أنك قاسيت كثيرًا.

ثم أضاف :

قصري تحت أمرك.

استرح فيه ما شئت.

لكن جوهان هز رأسه. و قال بصوت منكسر :

ليست لي حاجة بقصر. ولا بمال. ولا بجاه. لقد انتهت حياتي. ضاع شبابي. ضاع مستقبلي. ضاع كل شيء.

ثم رفع رأسه نحو السماء وكأنه يخاطب قدرًا لا يُرى :

ما أقسى الزمن !

إنه لا يقتلنا دفعة واحدة. بل يسرقنا قطعة قطعة. حتى إذا التفتنا خلفنا لم نجد أنفسنا.

ثم تمتم بحكمة قديمة :

الدهر يومان؛ يوم لك ويوم عليك، فإذا كان لك فلا تبطر، وإذا كان عليك فاصبر.

وأردف :

لكن الدهر عندي سرق اليومين معًا.

سكت قليلًا.

ثم قال :

لي سؤال واحد.

سل ما شئت.

هل كان للأمير فردريك ابنة اسمها مارجريت ؟

تغيرت ملامح الرجل.

و أجاب :

نعم.

كانت عمتي.

شعر جوهان كأن سهمًا اخترق قلبه.

عمتك ؟

نعم.

فهمس:

يا إلهي...

ثم اقترب منه.

وقال بلهفة :

أخبرني.

ماذا فعلت بها الأيام ؟

هنا تنهد الرجل طويلًا.

و قال :

قصتها من أوجع ما عرفته أسرتنا.

خُطبت لفارس شاب من نبلاء المنطقة. وكانت تحبه حبًا شديدًا. ولكنه اختفى في ليلة الخطوبة. اختفى دون أثر. كأن الأرض ابتلعته.

تراجع جوهان خطوة.

وسأل وقد شحب وجهه :

و هل عرفتم السبب ؟

أبدًا.

بحثوا طويلًا.

ولم يجدوا شيئًا.

وهي ؟ كيف كان حالها ؟

أطرق الرجل رأسه.

و قال :

انتظرته. سنوات طويلة. رفضت كل من تقدم إليها. وبقيت وفية لوعدها. وكانت تذهب كل يوم إلى شجرة قديمة في الحديقة. يجلسان تحتها أيام الشباب. فتجلس هناك وحدها. تبكي. وتحدث الريح. وتسأل الطيور عنه. كأنها تنتظر أن يعود من غياب مستحيل.

وأخذ صوته يختنق شيئًا فشيئًا.

حتى ذبل عمرها. وذبل قلبها. وذبلت أحلامها. ثم ماتت.

أغمض جوهان عينيه. وسقطت دمعة كبيرة على وجنته.

أما الرجل فأكمل :

وقبل موتها أوصت أن تدفن عند أصل تلك الشجرة.

فنفذنا وصيتها. لأننا كنا نعلم أن قلبها مدفون هناك منذ زمن طويل.

ساد الصمت. صمت طويل. ثقيل. حتى خُيل إليهما أن القصر كله يبكي.

ثم رفع جوهان رأسه. وكانت عيناه تلمعان بدموع السنين.

و قال :

إذن ماتت... ماتت وهي تنتظرني. ماتت وفية لعهدها.

ثم قال:

ما أعظمك يا مارجريت. كنتِ أوفى مني للحب. وأقوى مني على الزمن. وأشجع مني في مواجهة القدر.

ثم التفت إلى الرجل. و قال :

لم يعد لي في الدنيا مطلب. لا أريد مالًا. ولا سلطانًا. ولا بيتًا. ولا حياة. أريد شيئًا واحدًا.

ما هو ؟

خذني إلى قبرها.

نظر الرجل إليه مذهولًا.

إلى قبرها ؟

نعم. إلى شجرتنا. إلى المكان الذي شهد أحلامنا. إلى الأرض التي ضمت رفاتها. فإن كان العمر قد خانني... فلن يخونني الوداع.

وأمسك صدره المرتجف. ثم قال :

أنا يا سيدي ذلك الفارس الذي انتظرته خمسين عامًا. أنا خطيبها الضائع. أنا الرجل الذي سرقه الزمن من بين يديها. فخذني إليها. دعني أراها مرة أخيرة. دعني أبكي عند قبرها. دعني أعتذر لها. ثم بعد ذلك... ليفعل الموت ما يشاء.

وانحنى رأسه. وغرقت عيناه في دموع صامتة.

أما الرجل الوقور فقد وقف مشدوهًا ، لا يدري أيرثي هذا الشيخ الغريب أم يصدق حكايته.

لكن شيئًا خفيًا في أعماقه أخبره أن الكلمات التي سمعها لم تكن كلمات مجنون. بل كلمات رجل عاد متأخرًا جدًا... متأخرًا خمسين عامًا كاملة.

حين استحال الوهم عمراً

مأساة جوهان بين خدعة ليلة وخراب خمسين سنة

كانت القاعات تضجّ بالأنوار والضحكات، وتتماوج فيها أصداء الموسيقى كأنها أسراب من الطيور الملونة تحلّق تحت سقوف القصر الموشاة بالذهب. وكان الرجال والنساء يتبادلون النكات والطرائف، بينما تنسكب الخمور في الكؤوس كأنها أنهار صغيرة من الياقوت السائل.

وفجأة، انفجرت ضحكات مرحة من مجموعة من السادة والسيدات، ضحكات عالية متلاحقة، كأنها موجة دفعت بعضها بعضاً حتى غمرت المكان كله.

أما جوهان، فكان واقفاً بينهم بثيابه الرثة، وظهره المنحني، ولحيته البيضاء الطويلة التي تدلت على صدره كثلجٍ أثقلته الأعوام.

رفع رأسه ببطء، ونظر إليهم بعينين غائرتين أنهكهما الحزن، ثم قال بصوت مرتجف يحمل من الانكسار أكثر مما يحمل من العتاب :

أيها السادة والسيدات... لا تسخروا من عجوز مثلي... إن كنتم تعرفون الرحمة، فخذوني إلى قبرها.

ساد صمت قصير.

ثم انشق الجمع عن رجل يضحك ملء قلبه. كان الأمير كازيمير.

تقدّم بخطوات واثقة ، وربت على كتف جوهان قائلاً :

لقد جازت عليك اللعبة يا جوهان !

ثم مد يده إلى لحيته، وجذبها فجأة. فانفصلت اللحية عن وجهه بسهولة. رفعها في الهواء وهو يضحك قائلاً :

انظر! ها هي لحيتي في يدي !

ثم مد يده إلى لحية جوهان وانتزعها بدورها.

وها هي لحيتك أيضاً !

وتعالت الضحكات من جديد.

وأشار إلى رجل يقف غير بعيد عنه و قال :

أما الأمير جيروم المزعوم، فقد كان يؤدي دوره كما اتفقنا. أحد خدم الحفل هو الذي رسم له تلك الهيئة بالأمس.

تقدم الخادم بخطوات خجولة، وانحنى معتذراً :

معذرة يا سمو الأمير جوهان... لقد كنت أنفذ أوامر الأمير كازيمير.

ثم ضحك كازيمير و قال :

يا صديقي، لم يتقدم بك العمر سوى ليلة واحدة ! تلك الليلة التي نمت فيها في الغرفة التي زعمت أنها مسحورة.

واقترب أكثر وهو يشرح تفاصيل المقلب بفخر ظاهر:

دسَسنا لك منوماً في الشراب ، ثم صنعنا لك هذه اللحية البيضاء، ونقلناك أثناء نومك إلى غرفة أخرى تشبه غرفتك تماماً ، لكنها غرفة قديمة مهجورة في أحد أجنحة القصر. وعندما استيقظت ، ظننت أن خمسين عاماً قد مرت عليك وأنت نائم.

ثم ضحك ملء صوته :

أتعترف الآن ببراعة صديقك كازيمير ؟

لكن الضحكة خبت شيئاً فشيئاً فوق شفتيه.

فجوهان لم يضحك. لم يبتسم. لم يغضب حتى. كان ينظر إلى الفراغ. إلى شيء بعيد لا يراه سواه.

و قال بصوت خافت كأنما يصعد من أعماق بئر :

سيدي... لقد ذهبت الأيام بأغلى ما كان لي في الحياة.

وسكت.

ثم تمتم :

خطيبتي...

ورفع رأسه فجأة.

خذوني إلى قبرها.

تبادل الحاضرون النظرات. اختلطت الدهشة بالحيرة.

و قال أحدهم :

ما الذي جرى له ؟

و قال آخر :

يبدو متعباً.

لكن الخوف كان قد بدأ يتسلل إلى قلب كازيمير. اقترب من صديقه وأمسك كتفيه قائلاً:

جوهان! انظر إلي !

لم يجب.

قبر من ؟

ثم صاح :

إن ريتا بخير !

و التفت إلى الجمع :

مارجريت! أين مارجريت ؟

ثم عاد يهتف :

جوهان، أفق يا صديقي !

لكن جوهان هز رأسه ببطء.

و قال :

لا تهزأ من شيخ عجوز يا سيدي... ولا تحرمني من أملي الأخير.

ثم أطرق برأسه.

خذوني إلى قبرها.

وفي تلك اللحظة أقبلت الأميرة مارجريت.

كانت تضحك وهي تظن أن الأمر لم يجاوز حدود المزاح.

تقدمت بخفة كنسمة ربيعية و قالت :

جوهان، حبيبي... لقد جازت عليك اللعبة !

ثم أمسكت يده و أضافت مداعبة :

ها أنا أمامك. بخير كما تراني.

وأشارت إلى ثيابه البالية.

هيا، يجب أن تخلع هذه الملابس التي ألبسوك إياها وهم يعبثون بك.

لكن جوهان نظر إليها نظرة طويلة. نظرة موجعة. كأنها تنظر من نافذة خراب قديم.

ثم قال :

كلا يا ابنتي.

ارتجف صوتها.

ماذا ؟

قال :

ما عدت آبه بالحياة ولا بلذائذها.

وأغمض عينيه.

لقد تعبت.

ثم أضاف :

إنما أرجوكم أن تذهبوا بي إلى قبر الأميرة مارجريت.

كأن صاعقة ضربت المكان. تجمدت الابتسامة على شفتيها. وشحب وجهها.

وقالت في اضطراب :

حبيبي... ماذا تقول ؟

ثم أمسكت وجهه بين كفيها.

انظر إلي.

ورفعت رأسها نحوه.

انظر جيداً.

كانت دموعها قد بدأت تترقرق.

إلى هذا الوجه الذي أحببته.

و أشارت إلى شعرها الذهبي.

إلى هذا الشعر الذي طالما داعبته بيديك.

ثم همست :

ألا تراني أمامك ؟

رفع عينيه إليها. ولكنه لم يرها. بل رأى طيفاً بعيداً. صورة قديمة تذروها الرياح.

و قال في يأس :

يا ابنتي...

ثم تنهد.

إنك أكثر الناس شبهاً بها.

وانحدرت دمعة بطيئة على خده.

رحمها الله.

شهقت مارجريت.

أما هو فتابع :

لكنها رحلت.

وسرح بصره في البعيد.

وما أحسبني أقدر على أن أحب وجهاً غير وجهها.

ثم رفع يديه المرتجفتين.

ألا ترحمون شيخاً محطماً ؟ خذوني إلى قبرها.

عندها انفجرت مارجريت بالبكاء. لم يعد في الأمر مزاح. لم تعد هناك ضحكات.

كان القصر كله قد غرق في صمت ثقيل.

و قالت وهي تنتحب :

كلا !

ثم اقتربت منه أكثر.

كلا يا جوهان !

وأمسكت بيديه.

لا تنظر إلي كأنني عدم ! كأنني شبح ! كأنني ذكرى !

لكن جوهان لم يجب.

كانت عيناه غارقتين في عالم آخر. عالم صنعه الخوف. وأتمّه الوهم. وثبّته الحب. ذلك الحب الذي جعل ليلة واحدة تبدو له خمسين سنة كاملة. لقد عاش تلك السنوات كلها في قلبه. رأى فيها الشباب يذبل. والأحلام تموت. والوجوه تغيب. والقبور تمتلئ بالأحبة. حتى أصبح مقتنعاً أن الزمن قد سرقه بالفعل.

وكان الإنسان قد يخدع عينيه، لكنه لا يستطيع أن يخدع قلبه حين يصدّق الحزن. ولهذا لم يعد يسمع ما يقال حوله. بل كان يسمع صوتاً آخر ينبعث من أعماقه :

لقد تأخرت يا جوهان... لقد رحلت... لقد دفنتها الأيام...

فكان قلبه يجيب ذلك الصوت :

أعلم... أعلم...

>

قال أحد الحكماء قديماً :

ليس أقسى على النفس من وهمٍ صدّقته حتى صار حقيقة.

وكان هذا هو ما حدث لجوهان. لقد أصبحت الخدعة واقعاً. وأصبح الوهم عمراً. وأصبحت الليلة الواحدة نصف قرن. وأصبح الحب مأتماً. وأصبحت الحبيبة قبراً.

>

ارتمت مارجريت عند قدميه وهي تبكي بحرقة.

وقالت :

أنا مارجريت يا جوهان ! لم أمت ! أقسم لك أنني لم أمت !

ورفعت وجهها المغسول بالدموع.

انظر إلي ! أنا ريتا ! أنا حبيبتك !

لكن جوهان كان ينظر عبرها.

كما ينظر المسافر من خلال الضباب إلى مدينة غارقة في الأفق.

وقال بصوت متهافت :

رحمها الله...

ثم تمتم :

كانت أجمل زهرة عرفتها الدنيا.

و أطرق برأسه.

>

وفي تلك اللحظة شعر كازيمير بأن قلبه يغوص في بحر من الندم. لقد أراد ضحكة. فصنع مأساة. وأراد لعبة. فأيقظ في نفس صديقه أعمق مخاوف الإنسان :

الخوف من الزمن. ذلك العدو الذي لا يُرى. الذي يمشي في صمت. ويترك آثاره على الوجوه والأحلام والقبور.

وتذكر حكمة القدماء:

من لعب بمخاوف الناس ، أيقظ فيهم شياطين لا يعرف كيف يعيدها إلى نومها.

>

كانت مارجريت ما تزال تبكي.

وكان جوهان ما يزال أسير حلمه المرعب.

أما القاعة التي امتلأت قبل قليل بالضحكات، فقد صارت كبيت عزاء. الوجوه مطرقة. والقلوب واجفة. والعيون دامعة.

ولم يعد أحد يجرؤ على الضحك. فبعض المزاح، حين يتجاوز حدود الروح، يتحول إلى جرح. وبعض الأوهام، حين تلامس القلب، تصبح أشد من الحقيقة نفسها.

أما جوهان، فقد ظل يردد كلماته الأخيرة بصوت يكاد يتلاشى :

خذوني...

و سكت قليلاً.

ثم رفع عينيه إلى مكان لا يراه سواه.

خذوني إلى قبرها...

فارتجفت القلوب لسماع تلك الكلمات.

وكان الحاضرون يدركون للمرة الأولى أن الإنسان لا يعيش بالسنين التي تمر عليه، بل بما يعتقد أنه عاشه في أعماقه.

فقد تمر خمسون سنة فلا تغيّر قلباً. وقد تمر ليلة واحدة فتهدم عمراً كاملاً.